سنغور

مختارات من آثاره

دار الكتاب اللبناني - بيروت

سنخور

سنخور

ليوبولد سيدر



مختارات من آثاره

دراسة وتعريب

عبد اللطيف شراره

قدم له

سعيد عقل

دار الكتاب اللبناني - بيروت

الطبعة الاولى ١٩٦٦ – بيروت

مقدمة بقلم

سعيد عقل

مِن إفريقية ما عَمِل قضيةً بل رسالة .

ولو أنه عمِل الأولى لترك إفريقية إلى الأجيال علامةَ استفهام يدور عليها النقاش . ولما كانت ، كما هي اليوم بفضله ، رعشةً في ضمير البشر .

مُلْهَماً كان . بقدر ما كان ابنَ مِنهَج يعضِد ويُوصل .

يومَ ستقفُ إفريقية في حضرة الله (ومَن هؤلاء الحفنةُ من السياسيين لتقف أمامهم ؟)،وتقول انها لا تضمر حقداً للذين اعتبروها أرضاً ومستودعَ جنود ، وانما تحمل اليهم ، بعد أن انتصرت ، حبّها بيد وبالأخرى المعونة ، يَتبين الله في نبرتها بعضاً من صوت سنغور .

اثنان أطلقا إفريقية إلى الصُداح : الحبّ وهذا الشاعر السياسي .

الحبّ لأنه ، ولا مرة قبل هذه ، تفلتت قارةٌ من قبضة الحرام وكان دورها إلى هذا الحد حلالا . الذين صلبوها ، هم أنفسهم ، أُخذوا بنبلها . ومنها تعلّموا كيف اختراعُ الحُبّ من جديد .

والشاعر السياسي كان ، بين قادة افريقية ، بل بين القادة وكفى ، نبيلَ النبلاء . رَسَم الشهامة مُخَطَّطاً وما حاد .

لَكَم كان يلزَمُه أن يكون له سنغورُه كلُّ بلد تطلّع إلى الشمس بعد معاناة غُلّ . اذ القيام من القبر ، والقبضتان تقطران كرهاً ، هو موتٌ أكثر من الموت .

أيّةُ صرخةٍ غريبة الشجاعة ، لأنها ذاتُ صفاء ، راحت تدفع باب السماء، عند هذا السياسيّ الأبديّ الشباب ؟ واستجابت السماء . لآسية أن تحسد عليه افريقية . ولأميركة بجزأيها ان تحسد ، ولأوروبة بالأخصّ .

كلّ بيت من قصيد ، وُلِدَ على شِقّ قلم ، أنبأ بأن الهِمم إلى انفجار والضمير إلى يقظة .

وحدَهُ صفيقُ القلب ، ذاك الجهولُ بأوروبة ، التي هي بنتٌ لبيت لحم بقدر ما هي بنتٌ لصيدون وباريس ، لشكسبير وغوته ، ولمدينة نهر الرجال الذين يقلقون اليوم الكواكب ، كان يمكن أن لا يتوقع تحقّقَ المعجزة .

بلى ، هذا المناضلُ السيف كان إفريقياً أصيلاً لأنه كان أوروبياً غير منتقَص . أدرك تشابكَ المدنيّات ، وأنّ التي هي قليل ، وتغلّف الكثير ، ستودي بكل هندسة ، ستمزّق القشور ، لتتركه يطلّ بهياً متألّقاً وجهُ الحق .

وعلى نضال الشعوب كان لسنغور يدٌ جديدة . عطيةٌ من سماء . صوتٌ عليٌّ محتويه ومحتواه .

ولكن سنغور ما اكتفى بأن وثِق . بحكمةٍ تصرّف لا بدهاء . اذ الدهاء معرّض لاستثارة الريبة فالبغض . أيقظ الوَتَرَ الخيّر . ولأنّه ابن العصر ، أعمل دُربة العلم . فجعل الناس كلّهم يفرقون بين زنجيّ وعبد .

الإفريقي زنجي كما هو الليل الجميل . ولكن الإفريقيّ غيرُ عبد . وليس الحرّ من له قدرة على القتل ، إنما الحرّ مَن يجود . أوروبة أعطت بعقلها . أمّا افريقية فأعطت بعقلها وبالزند وبمساحات من الأرض لا تنتهي .

إن اعتُبر ابنُ القارة السوداء هو الأعرف بها ، الأوفى بتكوينها والأرحب تطلعاً إلى شقّ رسالة في الصعب ، فتكون افريقية ما اطلعت أشد افريقيةً من سنغور .

عرف احتمالَ تفرّدها في البَدْع فأعلنه كفجر من الله . وأحبّته إفريقية لربما كما ولا أحد .

وحلّ محلّ العالم في الحُنُوّ على القارة التائقة إلى الحق . لهذا أجلّه العالم وأحبّ فيه الابن الذي كفّر عن اثم العائلة .

صانعو افريقية الحديثة ، تلك النابضة بالخير والمستقبَل ، صانعوهـا جميعاً ، نقلوها إلى الضمير محبوبةً ومكروهة . الا سنغور. نقلها محبّةً صرفاً.

تُرى لأنّه شاعرٌ قدر على اجتراح العجب ؟

بالأحرى لأنه سياسيّ . ولكنْ من الاصيلين : بريكليس ، بولس ، جوزويه دو كاسترو . أولئك نعم قالوا بالسيف على أنه نارٌ لا حديد .

حتى إذا يُفهم بالشاعرما توحيه اللفظة الاغريقية ، يدٌ بين الصانعة والخالقة، فعندئذ يكون صاحبُ تلك القصائد،التي من حسّ بالحياة المجاوزة ذاتها ومن قلق إلى اللانهاية ، هو هو الذي ردّ الزنوجة رسالة . واذا أجمل قصائده: السنغال . يسلّه من مادة التأخّر أُمّةً نموذجية ستأخذُ عنها عريقاتُ الأمم .

الزنوجة ، مذهب سنغور ، باتت إحدى الكلمات الشُعَل . إنّ لها رنيناً تقوله الأرضَ خارجةً من فراش الحبيب . على أنها من كرامات قلائل،بها تَغنى زيارةُ الانسان للوجود .

هنا ، في لبنان ، نعتزّ بسنغور اعتزاز البشر بمن يشرّف جنسَهم . سنغور، لكثرة ما كان محبة ، بتنا نحسّه طيباً ينسِم على الأرض ، ونوراً يندفق من الغيب .

زحله ٣ أيار ١٩٦٦ — **سعيد عقل**

ل.س. سنغور

ماذا تعرف عن أفريقيا الحقيقية ؟

– أفريقيا الحقيقية غير هذا الشائع من أنها قارّة العناصر السوداء من البشر ، وعالم الغابات العذراء ، ومسرح المخلوقات العجيبة من الوحوش والسباع والافاعي والزرافات ، ومستودع الكثير من المعادن الثمينة والحجارة الكريمة والموادّ النادرة .

ذلك ظاهر تلتقطه الحواس الخمس ، ولا يعسر على أحد اكتشافه ومعرفته . وهذا الظاهر « لا يقول » شيئاً ، ولا يفصح عما يدور في أدغال النفس البشرية ، ولا يبين ما يمكن أن يكون لهذه القارّة من تأثير في المستقبل ، مستقبل الإنسانية برمتها وتطلّعها إلى عالم أرقى وأجمل وأحفل بمعاني الخير والعدالة والكرامة والسلام .

علينا إذا أردنا أن نعرف حقيقة أفريقيا أن نعود إلى الأشخاص الذين يمثلون الروح الزنجية الحديثة في معطياتها الثقافية وتطلّعاتها الإنسانية ، إلى

التاريخ وما يجول في قرارته من أسرار الواقع الراهن في أرض البشرية السوداء ، إلى الآثار الفنية الباقية ، ومظاهر التقدّم الحديث ، والنهوض الذي تطالعنا به معظم الأقطار الأفريقية التي استقلّت منذ انتصف هذا القرن إلى اليوم ، والتي تحاول أن تفتتح حريتها ، وسط المتاعب والعراقيل والآلام المضنية .

وذلك هو الموضوع الأساسي الذي ما انفكّ ليوبولد س . سنغور رئيس جمهورية السنغال ، عن درسه وجمع الحقائق المتصلة به منذ نحوٍ من ثلاثين عاماً . وكان منه أن جمع محاضراته ، ومقالاته ، ودراساته وأبحاثه في هذا الصدد تحت عنوان شامل « الحرية » وعنوان آخر صغير هو « الزنوج والنزعة الإنسانية » . وسيكون عنوان الجزء الثاني من هذه الأبحاث والدراسات « الأمة وطريق الإشتراكية الأفريقية . »

شاعرية الكلمة

الطريف لدى سنغور أنه معنيّ بالشعر والسياسة معاً ، وفي آن واحد ، فهو من هذه الناحية يمثّل الروح الأفريقية إلى حدّ بعيد ، أو يمكن الإستناد إلى قصائده التي نظمها بالفرنسية ، في تبين بعض أسرار هذه الروح ، أو إفرادها ، على نحو من الأنحاء ، ومحاولة تمييزها مما علق بها من الاتجاهات والنزعات والتطلّعات الغريبة الدخيلة ، أي من الثقافة الغربية الحديثة، بقول مختصر .

وإذا كان من العسير إفراد المحتوى عن الشكل في الشعر ، أو تمييز الأشياء المعنوية عن القالب الكلاميّ أو اللغة ، فإن هذه المشكلة ليست مستحيلة الحلّ على ما فيها من عسر ، لا سيّما أن الشخصية الإنسانية تفرض نفسها دوماً على البيان ، وتكسر الأطر المتعارف عليها ضمن لغة واحدة ، لتطل بتفردها وتميزها ، وتصوغ على الأثر إطاراً خاصاً بها تستقّيه من أصولها وتكوّنها نفسه ، وأخيراً من تجاربها والأشياء التي تتفرّد بها .

هكذا نجد مثلاً أن بشاراً غير عربيّ وإن نظم ديوانه بالعربية ، وأن ابن الرومي يتفرّد بطباع وعادات فكرية وحالات غير مألوفة في شخصية الشاعر العربي ، وأن أبا نواس لا يمثل في شذوذه وانحرافه الخلقي سوى القوم الذين تحدّر منهم ، وإن عبّر بلغة العرب ، وجعله بعضهم إماماً في الأدب واللغة ، وحتى في بعض فروع المعرفة القديمة .

من المستحيل إذن — على ما يظهر — أن تنطمس الشخصية التاريخية للكائن الإنسانيّ وراء الظواهر العامّة ، والوسائل ، والأساليب . ولا بُدّ للتراث الضارب في أبعد أبعاد الزمن ، من أن يتمثل في اتجاه ، أو فكر ، أو نزعة ، أو عاطفة خاصّة .

وهكذا ... يظلّ سنغور مثلاً ، أفريقياً وإن تكلّم الفرنسية على أفضل وأفصح وأجمل ما يتكلمها ابن باريس أو ليون أو مرسيليا ، وتبرز حقيقته الأفريقية هذه في أشعاره الفرنسية كما برزت حقيقة بشار الفارسية في شخصيته وظهرت حقيقة ابن الرومي الرومية في أشعاره العربيّة .

ولكن سنغور كشاعر ، ومن أبناء هذا العصر ، يأبى أن يتنازل عن شخصيته الأفريقية ، ويصر على الاحتفاظ بأصالته ، فهو يخاطب نيويورك مثلا ، في إحدى قصائده بهذه العبارات :

نيويورك ! أقول يا نيويورك ! دعي الدم الأسود يدفق في دمك

دعيه ينزع الصدأ عن مفاصلك الفولاذية ، ويؤدي في حياتك دور زيت الحياة

وليعط جسورك انحناءة الكفل ومرونة الألياف

ها قد رجعت الأحقاب الغابرة ، وما تحمل من وحدة مستردّة في مصالحة الأسد للثور والشجرة .

وتصالحت الفكرة والعمل ، والأذن والقلب ، والإشارة والمعنى .

حقيقة مجهولة

لاحظت عندما كنت في افريقيا ، وفي الصومال على وجه التحديد ، أنّ أهل هذه القارة ، إلى أي بلد انتموا ، وأية كانت اللغة التي فرض عليهم تعلمها في الأعصر الحديثة يتعاطفون أكثر ما يتعاطفون مع العرب ، وكنت أعجب لهذه الظاهرة ، وأبحث عن أسبابها ، وأحاول أن أتصل بأناسٍ من مختلف الشعوب الافريقية — مالي ، نيجيريا ، غامبيا ، كينيا ، السنغال ، الخ ... — فلا أقع إلا على ما يؤكد ذلك الانطباع في نفسي .

وخيل إليّ أني اكتشفت وحدي هذه الظاهرة ، حتى إذا اطلعت على كتاب الرئيس ل . س . سنغور ، وجدته يذكر عبارة لعالم ألماني بالسلالات البشرية ، هي : « إن للسودان حضارته النابعة من بلاده ، المتقدة . وإنه لواقع أن الاستكشاف العلميّ لم يعثر في افريقيا الشرقية إلا على حضارات قوية وطازجة ، في كل مكان ساده العرب ، فانّ الدم الحاميّ والمدنية الاوروبية

لم ينتزعا عن السود الأصليين الذين يشبهون الفراشات السوداء ، أجنحتهم التي كانت فيما مضى ، رائعة الجمال »

والظاهر أن تعاطف الشعوب الافريقية مع العرب خاصة يعود إلى ما قبل التاريخ ، وله جذور عميقة في المناخ ، والتربة ، والدم ، والثقافة الأصيلة لدى تلك الشعوب . والأفارقة لا يرون العربيّ غريباً عنهم ، حتّى وإن تكلّم اللغات الأوروبية ، وكان أبيض اللون أزرق العينين ، ولا هم يستشعرون معه بشيء من الوحشة ، ويبدو عليهم الحذر من الأوروبي الأبيض في اللحظة التي يعرفون بها أنه انكليزي مثلاً أو بلجيكي أو برتغالي أو أميركي ...

أما تجاه الشعوب الأخرى الشرقية كالهنود والصينيين فإن مواقفهم تظلّ أقرب إلى موقفهم من العرب ، لأنهم يشتركون بالحس مع الشرقيين في كثير من أحداث التاريخ ، وأنماط الثقافة والحضارة ، بل هم لا يجدون فرقاً بين أهل اندونيسيا مثلاً وأهل أنغولا ، ولا يحسبون جاوى أو سومطره غريبة عن مدغشقر . وتلك هي حقيقة التاريخ .

والأمر الذي لا جدال فيه أن قرب افريقيا الشرقية من المناطق الجنوبية في شبه الجزيرة العربية جعل الافارقة والعرب ، إلى حد ما شعباً واحداً ، فاذا التفتنا الى أن تلك المناطق العربية كانت ذات حضارة فارعة مديدة ، إن في اليمن وإن في حضرموت وعدن ، أدركنا التفاعل الحضاري والثقافي بين جانبي البحر الأحمر ، وكيف أن هذا التفاعل امتدّ إلى الجنوب الشرقي حتّى بلغ مدغشقر ، ناهيك عن توغله في الحبشة وما يليها إلى الغرب حتّى السنغال . ولا عجب أن يكون الأمر على ما نصف ، فان « افريقيا » اتخذت اسمها من أحد تبابعة اليمن الذي كان يدعى « أفريقس » .

وأحسب أن سنغور الشاعر يعبر عن هذه الحقيقة المجهولة أفضل وأوضح تعبير ، فقد توجّه إلى ملكة سبأ ونسلها بقصيدة طويلة ، خاطبها فيها بوصفها أمه :

بوركت يا أماه !
إني لأسمع صوتك في الوقت الذي تسلمني به الأقدار إلى الصمت الماكر
صمت هذا الليل الأوروبي .

... ...

بوركت يا أماه !
أنا لا أنفخ ريح الشرق على هذه الصور التقيّة ، كما على الرمل ورسومه
أنت لا تسمعين حين أسمعك ...
تنشّقي يا أم في هذه الغرفة التي يعمرها أغريق ولا تبن رائحة ضحايا
فؤادي ...

أما تعلّقه بالمزايا والشمائل العربيّة ، واهتمامه بابرازها في حياة الزنجيّ وكيانه النفسي ، وتشدّده في إظهار محاسن افريقيا ، فذلك ما يتكرّر على لسانه عفواً ، ويجري به قلمه في كل مناسبة .

وأهم نقطة يلح سنغور على بيانها في طبع الزنجي الأصيل ، إنما هي قضية « الشرف » بكل ما تستتبع من تحرّر وعفة وأمانة ونأي عن مواطن الشبهات ، وسعي في سبيل الخير والمعرفة والاستقامة ، ومقاومة العدوان أخيراً والاحتياط للسلام .

وتلك هي النقطة التي يلتقي عندها العرب والزنوج ، وتجمع بينهم قديماً وحديثاً .

في أفريقية الغربيّة

والملاحظ إجمالاً أن الروح الفرنسية — وثقافة فرنسا عبارتها المثلى — أنأى ما تكون عن العصبية العنصرية ، بين الشعوب الاوروبية . وإذا أنت حذفت الدخيل على فرنسا من المبادىء والاتجاهات والنزعات ، كالرومانطيقية مثلاً ، والغلو في تمجيد الذات ، والاستعلاء العسكري ، فهذه كلّها من نتاج أوروبا الشمالية وألمانيا — إذا أنت حذفت هذه الأشياء الغريبة عن الروح الفرنسية الأصيلة ، وجدت أن الشعب الفرنسيّ يأتي بعد العرب في التعاطف مع الملوّنين ، ومع الأفارقة خاصة .

والسرّ في هذه الميزة أن الشعب الفرنسي تنامى وهو مولع بالشعر والأدب ، توّاقٌ إلى التحلي بفضائل الفروسية ، مفتون بالحرية . وليس في تاريخ الشعب الفرنسي ما يشير إلى أنه يهوى الخبث ، ويمجد النفاق ، ويسعى في الضرر بالآخرين ... وإذا كان قد مرّ في بعض فترات التاريخ ، بالآفات التي يخلقها الاستعمار في ذويه ، فان تلك الفترات لا تمثل روحه كشعب ، ولا تعبر عن

اتجاهاته الاصيلة في الحياة العامّة . والأفراد على الدوام شيء ، والشعب شيء آخر ، حين لا يكون أولئك الأفراد في مسالكهم ، مثالاً لروح الشعب .

ولا بد أن أُشير ، زيادةً في إيضاح هذه النقطة ، وإلى ناحية كثيراً ما أغفلها الباحثون ، ألا وهي أن المبدأ « الثالث » الذي ارتكزت عليه الثورة الفرنسية الكبرى ، إنما كان «الإخاء» بين البشر ، مضافاً إلى الحرية والمساواة، وأن هذا الإخاء اصطدم ولا يزال يصطدم ، داخل فرنسا وخارجها – خارجها على الأخص – بالنفعيين والارستقراطيين وأصحاب العصبيات التوراتية القديمة البغيضة ، ولكنه يظلّ كمبدأ ، أو كاتجاه لم تلتفت اليه أمة أوروبية قبل فرنسا ، دليلاً على صحة ما نقرر من أصالة النزعة الانسانية في الروح الفرنسية ، وإن تعثّرت هذه الروح بأعدائها من فرنسيين وأوربيين آخرين .

هذا الاتجاه نحو الإخاء الإنساني الراسب في قرارة الثقافة الفرنسية هو الذي جعل أفريقيا الغربية فرنسية ، بمعنى من المعاني ، أي بالمعنى الثقافيّ والولاء السياسيّ ، وهو الذي تأثر به – وإنْ لم يتضح له اتضاحاً وافياً – الرئيس السنغالي ، وإذا به يجد افريقيا الغربية « مشدودة إلى قارات العالم الخمس ، بروابط أقوى من الأسلاك التي تصل بين الجانبين ، وعلى الأخص ، بين افريقيا الغربية وفرنسا » .

ولكن سنغور لا يجد التعليل الصحيح ، الكامن بعيداً خلف الظواهر ، لهذه الرابطة التي تشد افريقيا بمجملها ، إلى فرنسا ، فهو يحسب أن « ضرورة التكيف لا يمكن أن تقينا – الأفارقة – من الاندماج ، إذا أردنا البقاء ، وبيئتنا لم تعد أفريقية - غربيّة ، وإنما هي أيضاً فرنسية دولية ، أو هي بقول مجمل : أفريقية - فرنسية »

والذي أراه أن اندماج أفريقيا الغربية ثقافياً بفرنسا لم ينشأ عن الحاجة أو الضرورة إلى التكيف ، وإنما هو في واقع أمره اندماج فرنسي تقوم وراءه عدة عوامل وتحفز اليه جملة بواعث . والباعث الإنساني الصحيح عليه ، إنما يأخذ صحته وإنسانيته من ديمومته بعد زوال الاستعمار وتحقق الاستقلال ،

وهو نزعة الإخاء الراسبة في أغوار الروح الفرنسيّة ، وهي التي جعلت فرنسا تتعاطف مع الشعوب الأفريقية ، وحتى الآسيوية ، إذ كان رومان روللان — وهو مثلٌ من مئات الأمثلة البارزة — الصديق الأوفى لطاغور ، وحامل لواء غاندي في الدفاع عن استقلال الهند ، داخل اوروبا .

هذا الاندماج الفرنسي يلقى قبولاً في الأوساط الافريقية المثقفة ، بسبب من صفاء الباعث عليه ، حتى إذا كان هذا الباعث مشوباً بما هو غير إنساني ، كما رأينا في الجزائر مثلاً ، تعرّض لما يزعزعه أو يقوّم اعوجاجه حتى يعود إلى قاعدته الأساسية . ويخاص من الشوائب التي علقت به ، أو التي أراد المغرضون من أعداء فرنسا — وفيهم فرنسيون أقحاح — أن تعلق به ...

وهنا ينبغي أن نتذكر أن الفرنسيين ليسوا كلهم رومان روللان ولا غوستاف لوبون ، وإن كان هذان وأمثالهما يعبرون عن روح الأكثرية الساحقة في النظر إلى علاقات الأمم والأوطان والشعوب ، وانتشار الثقافة الفرنسية في افريقيا الغربية لم يجر استجابة لنزعة الإخاء الإنسانية،وإنما كان الاستعماريون « يحسبون » أنه وسيلة من وسائل السيطرة وبسط النفوذ والعظمة ، حتى إذا تحقق ، ذهب الزبد جُفاءً ، وما ينفع الناس مكث في الأرض .

ولو كان الأمر على غير ما نصف ونشرح ، لوجدنا في البلدان الافريقية الأخرى الخاضعة لسلطانٍ غير سلطان فرنسا ، نزعةً إلى الاندماج كهذه التي يتحدث عنها الرئيس ليوبولد سنغور . والواقع الملموس يؤكد أن أقطار افريقيا الوسطى والجنوبية ، تريد أن تتخلص من نفوذ الاوروبيين البيض ، وسائر ما يتصل بهم ، أياً كان الثمن ومهما كان غالياً ، لا لشيء إلا لما يتّسم به سلوك أولئك البيض — غير الفرنسيين — من قسوةٍ وضراوةٍ وسوء معاملة ، وإمعانٍ في نشر الجهل والذل والعبوديات .

وعلى هذا يمكن التقرير أن هناك ضرباً من التفاعل ، على الصعيد الانساني ، بين الروح الفرنسية ، والثقافة الاصيلة لدى الشعوب الزنجية ، هذه الثقافة التي تضرب في أعراقها البعيدة إلى علاقات العرب القديمة بشعوب افريقيا ، لا فرق بين شماليها وشرقيها وغربيها .

في المحيط الدولي

بيد أن الخلاص من الاستعمار ومساوئه ، يجرّ الأفارقة ، على نحو ما جرّ أهل آسيا ، وكما يجر اليوم أهل أميركا اللاتينية ، إلى مواجهة الحياة الدولية ، وبالتالي الحضارة ، من زاوية جديدة . والزاوية هي الّتي تتكوّن من التقاء بُعْدَيْن ، والبعدان اللذان التقيا أخيراً هما ثقافة الشعوب المغلوبة على أمرها في طرف ، وثقافة الغرب في الطرف الآخر ، فقد أصبح الموقف يقتضي إعادة النظر في حضارة الغرب ، ليأخذ هذا بعين الاعتبار تطلّع تلك الشعوب إلى الأمن والرخاء والعدالة والسلام ، بعد أن كان تلاقيه معها يتمّ في ميادين القتال ، وحلبات المفاخرة والمنافرة ، ويستغلّ ما أوتي من تقدّم في العلوم والتقنيات لفرض نفسه بالقوة ، وتنفيذ مناهجه وأفكاره عن طريق الغَلَبَة وذلك ما أفضى به عملياً إلى الخسران المعنوي والمادي ، إذ انقسمت الدول الغربية على نفسها بفعل أطماع كل منها ، وتنافسها على الأسواق والمواد الخام والمنافع ومناطق النفوذ ، وأفاقت الشعوب المغلوبة من سباتها تريد لنفسها

الاستقلال بأمورها ، ومواردها ، والاعتماد على نفسها في تركيز مستقبلها ، وتقرير مصائرها ، وتنظيم شؤونها الداخلية والخارجية .

هذا التغير في الموقف الحضاري العام الذي حصل مع الزمن ، وعلى نحو طبيعي خالص ، أي نتيجة أحداث وقوى تاريخية ، وكان من بعض ظواهره في أفريقيا سنغور نفسه — هذا التغير ينعكس على الاتجاهات الفكرية في فهم الحياة الدولية والسير بها في طريق جديد .

وهنا ، يجول الرئيس سنغور جولات موفّقة في معظمها ، يلخصهامقالاه عن « مشكلة الثقافة » و « حرية الروح أو مدح التمازج » ، وإن كانت آراؤه فيهما ، منبثةً في كل ما كتب وخطب .

هاك ما يقرره في بحثه مشكلة الثقافة : « التعليم لا يكفي . يجب أن نحمل الناس على الحب . لقد عرفت شباناً أفارقة درسوا الحضارة الأفريقية مطوّلاً ، على نحو ممنهج ، في كتب أوروبا ، كما أنهم درسوا الحقوق في جامعات أوروبا ، ليفيدوا منها وليستخدموها . أريد أن أكون أكثر دقة : لقد عرفت زنوجاً مثقفين لا يُطرون القِيَمَ الزنجية ، إلا ليحظوا باحترام العالم الأبيض . لا ! أن يعرف المرء حضارة أجداده فذلك وحده لا يكفي ، وإنما ينبغي أن « يعرفها بنشأته فيها ولها »، وبتعاطفه معها ، فالمراد أن يحيا فيها،أكثر من يعيدها للحياة ويعيش فيها بفكره ، ولا أن يعيش منها في حلم ، أو بالكلام، بل بالأعمال اليومية »

ذلك يعني أن الأفارقة يريدون خوض الحياة الدولية الراهنة ، أي الإسهام في الحضارة القائمة انطلاقاً من كيان فكري خاص خالص ، وهذا هو الموقف « السليم الصائب » لأنّ كل ذوبان في عالم آخر يؤدي إلى إفقار الذات ، ولا يفيد الآخرين شيئاً ، وكل اعتماد على فكرة أو ثقافة ليست من نتاج أرض الإنسان وتاريخه ، يرد صاحبه إلى حالٍ من الاتكال عقيمة ، ويجعله طفيليّ

الروح . وهذا ما يرفضه الأفارقة ، وفي ثقافتهم ما يؤكد مثل هذا الرفض ويرسّخه !

ولكن الموقف يقتضيهم أيضاً أن لا يرفضوا كل شيء ، ولا هو في وسعهم بعد ، أن يكتفوا بما لديهم . فما العمل ؟

الرأي الذي يقدمه سنغور أن « نردّ للثقافة حركتها الجدلية ، أن نجعل منها حواراً خصباً بين حضارتين ، أو مناظرة بين أصدقاء وذوي عقول وأمزجة مختلفة ، وهذا أفضل . »

وسبيله إلى البرهنة على صحة هذا الرأي ، قائم في النظر إلى أعلى ، إلى الحضارة المثلى . « فالحضارة المثلى تشبه تلك الأجسام التي تكاد تكون إلهية ، وتصدر من يد مثالٍ ذي عقل كبير ، وبها تتجمع جمالات أعراق البشر جميعهم وقد أتقن التوفيق بينها » .

العمل إذن أن نحيط بكل شيء ، ونختار ما يوافق ، ونؤلف بين مختاراتنا على نحوٍ يجعلها منسجمة ، خصبة ، وغنية ، يفيد منها الجميع ، ويستمتع بها الجميع .

الناقد الأدبي

وسنغور ليس شاعراً ومفكراً سياسياً وحسب ، وإنما هو أيضاً ناقد أدبيّ من الطراز الأول ، فأنت تعثر في مقالاته (وخطبه) الأدبية المنشورة في الجزء الأول من كتاب « الحرية ١ » أكثر ما تعثر على موضوعات نقدية ، ودراسات لعدد عديد من الأدباء . وهاك بعض الموضوعات التي بحثها :

١ — الشعر الزنجي — الأميركي .
٢ — شباب فيكتور هوغو .
٣ — بول ايليوار ، كلاسيكي ، الوحدة المستعادة .
٤ — مأثرة الشعر الزنجي في نصف قرن .
٥ — واقعية آمادو كومبا
٦ — غنائية لاهنر
٧ — ستيرلين أو الشاعر — النبي .
٨ — الأدب الافريقي بالفرنسية .

٩ — الزجل في سورانغ .
١٠ — تقدير لألبير كامو .

ليست هذه العناوين سوى نماذج ، وكلها تشير إلى أن الحياة الأدبية لدى الزنوج وفي المحيط العالمي ، تحتل من اهتماماته درجة عالية ، وأنه يرعاها بحنوٍّ وانعطافٍ وتعلّق ، وهو يحاول في الموضوعات الأدبية التي يبحثها أو يلقي عليها نظرات خاصة ، أن يشوقك ويقرّبك ما استطاع من الأدباء والشعراء الذين يتحدث عنهم ، ولكن اهتمامه الأكبر منصرف إلى أدباء الزنوج وشعرائهم وبيان ما يمكن أن يصدر عن الزنوجة من عطاءات في مختلف نواحي الحياة العقلية ، ثم إلى توضيح المواقف التي اتخذها الأدباء العالميون من القضية العنصرية .
فإذا دعته منظمة الأونسكو مثلاً إلى التحدّث عن غوته بمناسبة مرور مائتي عام على ولادته ، اختار هذا الموضوع : « رسالة غوته إلى الزنوج الجدد » ، واستهلّ حديثه هكذا :

« ليس في نيتي أن ألقي ضوءاً جديداً على أدب غوته وآثاره ، فإن الذين هم أكفأ مني لتناول مثل هذا الموضوع لن يقصروا عن ذلك ، ولكني سأقول ، بكل بساطة ، شيئاً عن التعاليم التي تلقناها نحن مثقفي الزنوج بالفرنسية ، من مطالعة فولفغانغ غوته في الأيام العصيبة التي سيطر بها النازيون ... »

بيد أن هذا الاهتمام الذي يوليه سنغورُ كل ما هو زنجيّ في عالم الفن والأدب ، لا يعني أنه يتناول هذين بروح قومية عنصرية ، كما هو الشأن لدى بعض الباحثين الغربيين في تناول الثقافات الشرقية . لا ...

ليس في الأمر شيء من ذلك ، فالناقد الأدبي في شخص الرئيس سنغور ، يظل على اهتمامه بجانب معين — وهو اهتمام مخلصٍ وصادق مع نفسه والحقيقة — موضوعيّ التفكير ، مؤمناً بما يعرض ، حريصاً على أن يكون توجيهه متمشياً مع الحقائق الأدبية العليا التي يؤثرها على كل ما عداها من نوافل الشؤون الاجتماعية والسياسيّة .

إنه يقدّم بين يدي حديثه عن الشعر الزنجي الأميركي هذه القاعدة :

« لن أدهشكم إذا قلت لكم أن فنّ شعب ما لا يكون أبداً ، خلقـاً خالصاً ، لا علاقه له بما هو خارج عنه . وإذا كان الفنان – شاعراً أم مصوراً أم موسيقياً – يخلق أشكالاً لم يشهدها أحد قط . ولا سمع مثلها أحد قط ، فذلك إنما يكون في الإعراب عن بضعة أفكارٍ ، والاعتماد على بعض تقنيات ، هي مشاع مشترك بين أبناء شعب معيّن ، وهذا الشعب متكوّن على يد تاريخه الخاص . وجغرافيته الخاصة . وأصوله السلالية الخاصة ».

ثم يقول :

« وزنوج أميركا في الولايات المتحدة لا يخرجون عن هذه السنة الطبيعية العامة . وأشعارهم مما لا يمكن أن تُفهم أو يتذوّقها الآخرون ، إلا إذا كانت الوقائع الثلاث الآتية الجوهرية قائمةً في أذهانهم وهي : أنهم أحفاد الأفارقة الزنوج ، وأنهم (شحنوا) إلى أميركا ، وأنهم أقاموا هناك عبيداً طيلة قرون وقرون ... »

وهكذا ، يدرس آداب الآخرين ويحلل آثارهم بروح عالم أنتروبولوجيّ ، أي أنه يعتبر الأدب « انبثاقاً » عن حياة شعب وتاريخه ومجتمعه ، وهذه هي النظرة الصحيحة العلمية ، والتي لا يستقيم بدون اعتبارها أي نقد أو تحليل أو تعليل للفن والأدب .

وسنغور ، إذ يعتمد هذه النظرة العلمية في فصوله النقدية ، ينأى بمواطنيه وأبناء جلدته عن كل ضياع ، ويقرّبهم من الالتزام ، ويشدّهم إلى واقعهم ، ويحول دون ضلالهم أو تضليلهم في غيابات الأوهام التي نشرها اليهود وأتباع اليهود في الخافقين ، مثل حكاية « الفن للفن » و « النزعة الإنسانية » الجوفاء من معناها وكل معنى صحيح ، هذه النزعة التي تحوّلت على أيدي المضللين والضالين ، إلى ضرب من « التشرّد » العاطفي والفكري ، و « التيه » في مفاوز الألفاظ والكلمات الغامضة .

ومن الواضح أن سنغور كان يرمي عمداً ، أو عن غير عمد ، إلى هذه الأهداف من كتاباته النقدية ...

نأيٌ عن التحزّب

وكان أن أفضى به هذا الموقف الموضوعي في مواجهة الآثار الفنية والأدبية ، إلى تحوّل عن كل حزبية في مراس الحياة السياسية ، وبالتالي في النظر إلى قضايا الاجتماع البشري ومشاكله ، وأحواله الخاصة والعامة .

يتضح لنا هذا النأي — الطبيعي في شاعر سليم الفطرة — عن كل تحزب . في أكثر ما كتب سنغور وخطب . ويتضح لنا أساسه الأدبي في مقالةٍ نشرتها صحيفة « كونديسيون أومين » بتاريخ ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٥٤ ، حول موقف النقاد في فرنسا وسويسرا من قاصّ زنجي اسمه « لاي كامارا » نال الجائزة الدولية للرواية في سويسرا ، وتبع أولئك النقاد الأوروبيين نفرٌ من المثقفين الافريقيين يلومون الكاتب الزنجي أنه لم يقاوم الاستعمار في كتاباته ولا قارع الاستعماريين .

هنا يقول سنغور : « إنه وايم الحق لنقدٌ غريب هذا الذي يطلب إلى الفنان أن لا يعمل أثراً فنياً ، بل جدلاً سياسياً ، كما لو أن النقد الأدبي الفرنسي

والأجنبي ، لم يتذرع بهذه الحجة نفسها ، يوم استقبل قصائد إيميه سيزير ، الثائر الأصيل »

والواقع أن المعنيين بقضايا الثقافة ، على العموم ، في بلدان آسيا وافريقيا ، وحتى في أميركا اللاتينية ، يقعون في تناقضات معيبة حين « يتدخلون » بين الشاعر — والفنان على العموم — ونفسه . فاليساريون يريدون منه أن يغني على ليلاهم ، أن يصوّر أكوانهم لا أكوانه ، أن ينطق بلسانهم لا بلسانه ، وأن يتحدّث إلى الناس عن أشياء قد لا تمثل له ما تمثل لهم من أهمية . واليمينيون يضطربون في التقييم ، ويغالون في نبذ كلّ من لا يروقهم ويسهر على راحتهم ويبذل من ذاته لأجلهم ، دون أن يقدّموا له شيئاً سوى رغبتهم السنية في التضحية به !

ولا مشاحّة أن الجانبين يخالفان الحقيقة العلمية التي أوردناها قبل قليل عن لسان سنغور نفسه ، وهي أن الأدب الحق ، إنما يكون « انبثاقاً » عن طبيعة ، وسيراً مع «سنة» طبيعية ، بمعنى أن الشاعر الزنجيّ لا يمكن أن يكون حين يكون شاعراً حقاً ، إلا تعبيراً عن كيان شعبه، في فترة معيّنة من الزمن، ضمن إطار أو بقعة معينة من الأرض .

المهم إذن « الأصالة » ، سواء وجدت لدى غوركي وشولوخوف ، أو لدى البير كامو وفرانسوا مورياك ، فكل واحد من هؤلاء يجري فيما يعطي على سجيّته ، ويصف أكوانه ، ولا « يتكلّف » جواً غــير جوه النفسيّ — وبالتالي الاجتماعي — الأصيل ..

ومتى جرى الفنان على سجيته نأى عن كل حزبية ، وإن بدا متحزباً للثائرين مثل : سيزير ، أو غير مبالٍ بالاستعمار مثل لاي كامارا .

وهذا ما يتشدد الرئيس سنغور في بيانه ، والتأكيد عليه .

حبّ الشعر

ولكن أطرف وأجمل وأغنى ما يقوم وراء هذه الأفكار والنزعات والاتجاهات الثقافية والسياسية ، في سيرة الرئيس ل . سنغور وأدبه ، إنما هو ذلك الحب العميق الذي ينطوي عليه ، ويبوح به في كل مناسبة ، للشعر ، والشاعرية . وهذا الحب يعني في جوهره ، نشدانٌ لحياةٍ غير هذه الحياة الواقعية التي يشيع في جنباتها — ولا سيما في أفريقيا — ظلامُ العبوديات ، ويخيم عليها الفقر ، ويحمل اليها « البيض » من أهل أوروبا وأميركا الهمّ والداء والعذاب ، ويرهقونها بألوان الذل وأنواع الهوان ...

ذلك هو السرّ الدفين القائم وراء تعلّق سنغور بالشعر وأهله ، فهو يرى فيه « ترجمان » الروح الزنجية التي لا يجد فرقاً ، حتى ولا ظلّ فرقٍ ، بينها وبين الروح الانسانية الشاملة .

ثم كان من شأن هذه النزعة « الشعرية » في كيانه النفسي ، وخلوصها من

كل شائبة ، أن صدّته عن الانضواء إلى مدرسة أدبية معيّنة ، بنسبة ما صدته عن الأخذ بحزبية معينة في أفكاره وتحركاته السياسية .

إنه يقرّر مثلاً ، بكل بساطة ، حول الواقعية ، هذا التقرير : « ليس صحيحاً أنّ الواقعية هي الوسيلة الأكثر فعّالية في الافصاح عن الواقعي . »

أما دليله على صحة ذلك ، فيستقيه من التاريخ أولاً : « ... فالواقعية ، تاريخياً التي تحوّلت إلى « طبيعية » على يد زولا ، إنما هي طريقة روائيي النصف الثاني من القرن التاسع عشر . صحيح أنها تعلن عن نفسها موضوعية لأنها « علمية » باعتبار أن « الرواية تصنع نفسها ، وتنبثق بنفسها من المواد » ، ولكن من المعروف أن المواد لا تتقدّم من تلقاء نفسها ، قبل كل شيء كما هي الحال في الصورة الفوتوغرافية ، وإنما تُنتقى ، ويُعاد ابتكارها والكاتب يدخل ذاتيته ... والواقعية ، في الحقيقة ، ليست سوى ذاتية ، تحمل نفسها زوراً ، على أن تكون موضوعية ، فمن النادر أن يتحدّث إلينا الروائي الواقعي عن الجماهير الشعبية ، والأندر من ذلك أن يعبر عن مواقفها وتطلعاتها . والكفاح الذي تخوضه من أجل حريتها ، وهو هذه الحركة الشاملة الواسعة ، سينتهي بأن يفرض نفسه يوماً ما ، رغم العراقيل والنكسات ، باعتباره تحرراً شاملاً للانسان » .

وهذا الموقف الذي يتخذه سنغور من الشعر في جانب ، والمدارس الأدبية في جانب ، الايجابي مع ذاك ، والسلبي مع هذه ، يفيد أنه يحب « الإنسان » جملة ، ولا يزدهيه من الوجود إلا ما يرفع هذا الإنسان ، ويجعله في سعةٍ من حياته ... على أديم الأرض !

ذلك لأن الشعر — في رأيه — « ظاهرة حضارية » وشأنه شأن كل ظاهرة تشابهه « يترجم أكثر من غيره روح عصر من العصور ، وهو لم يستطع أن يتملّص من الانحطاط العام الذي أصاب الحضارة في عهود الاقطاع » . والعمل على ارتقاء الشعر ، يعني ، ضمناً مقاومة الاقطاع ، ورفع المستوى المدني ...

مشكلة اللغة

ولكن الشعر في حياة شعب ما يرتبط باللغة ، وقد تناول سنغور مشكلة اللغة في عدة خطب وأبحاث ودراسات . ويمكن إجمال آرائه في النقاط الآتية :

١ — ليست اللغة مرتبطة بالعرق .

٢ — الجهل بلغة الأم ، نزعٌ للجذور .

٣ — الترابط الدولي في القرن العشرين يفرض ازدواج اللغة في كل مناطق العالم المتحضرة .

النقطة الأولى تعني أنّ في مستطاع الأديب أو الفنّان أن يستعمل في تعبيراته لغةً غير تلك التي نشأ عليها قومه وأبناء أمته ، وهذا ما تحدثنا عنه في بداية هذه الدراسة عند ذكر ابن الرومي وبشار ، وما هو ظاهر هذه الأيام لدى كثير من الأدباء العالميين المعروفين مثل جبران في لبنان ، وطاغور في الهند ، وزنوج أميركا الشمالية والوسطى والجنوبية ، وما يمكن أن يكون له أمثلة في جميع أقطار العالم .

والثانية تفيد أن الأديب الذي يصطنع لساناً غير لسان أمته يصبح من غير جذور أي أنّ موقفه في التأثير يتخطّى الجماهير ، ليحط على فئة ٍ معينة من النخبة ، ولا يمكن أن ينال من الحظوة ما يناله الأديب الذي يزيد في غنى لغته الأم ، وتتكرس عبقريته على أنها من نتاج أمته ، لا من نتاج الأمة التي يستعمل لسانها في منظومه أو منثوره .

والثالثة تأكيد لحقيقة ثقافية ، وهي أن الشعب المتحضر الذي يعيش في هذا العصر ويعاني حياته معاناةً صحيحة ، لا يملك أن يكتفي بلغة واحدة . لا بدّ له من الاطّلاع على آداب الآخرين ، والتعامل معهم ، والإفادة من تجاربهم في مختلف الحقول الثقافية .

وهذه النقاط الثلاث – كما يرى القارىء – واقعية ومعقولة ، ومن ثمة ، صحيحة .

هذه المقتطفات

ولقد اخترت من أشعار ل . سنغور ، وكتاباته النثرية ما وجدته صالحاً لإعطاء فكرة كافية عن الحياة الثقافية لدى الزنوج ، بوصفه ممثلاً لهم ، ومعبراً عن أصالتهم ، ومؤمناً برسالتهم وقيمتها إلى العالم المعاصر .

وراعيت في ترجمة هذه المقتطفات ، أكثر ما راعيت ، الجوانب الافريقية الخالصة متجنّباً في انتقائها بعض التفاصيل التقنية التي لا يتاح فهمها إلا لمن كان على صلة وثيقة بجوائها وآفاقها الزنجية والفرنسية . ومن كان هذا شأنه يستطيع أن يطلع على آثار سنغور بالفرنسية .

وأحسب أني قدّمت للقارىء العربي في هذه المقتطفات من شعر سنغور ونثره ، خلاصة أفكاره وآرائه ، وأقباساً من تطلّعاته ونزعاته الانسانية التي تشير من قريب وبعيد ، إلى أشباهها في الأشعار والمنثورات التي لم أنقلها .

وهذه هي المقتطفات التي اخترتها ، بين يدي هذه الدراسة .

٢٠ - ١١ - ٦٥ **عبد اللطيف شراره**

مقتطفات
من
شعره

رأيت مما مرّ بك أن الرئيس ل. سنغور شاعرٌ قبل كل شيء ، وشاعريته ليست مظهراً من مظاهر أصالته وإنسانيته فحسب ، وإنما هي في أشعاره ، فيض من ثقافته الشاملة أيضاً ، فهو إذ يعبّر بالفرنسية عن أعمق الأحاسيس وأرفعها كزنجي ، يؤكد بمجرد أشعاره ، طاقة الزنوج الهائلة على استيعاب الحضارة الغربية من جهة ، وإغنائها وحتى تنقيتها من جهة أخرى .

ذلك بأن حضارة الغرب ، على نحو ما عرفتها شعوب أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية ، مشوبةٌ بروح عنصرية ، هذه الروح التي أفقدتها إلى حدٍ بعيد ، صفاء النظر الموضوعيّ ، سواء إلى نفسها وإلى غيرها . والزنجي الذي اطلع على تلك الحضارة ، وعاش في جوانبها ، ومارس آدابها ، أي تغلغل إلى ما وراء العمران ، ومظاهر التمدن ، وألق البذخ ، وزخرف الترف ، لا بدّ أن يلمس ما تنطوي عليه من حيف تجاهه ، وما يرسب في أغوارها من ضلالات وحماقات وتخلخل في الأساس : الفكر والعاطفة .

وأشعار سنغور تشير ، في جزء كبير منها ، إلى تململه الدفين مما لمس في تلك الحضارة ، وما ناله ، أي نال قومه — وهم الزنوج عامة في افريقيا كما في أميركا — على يدها . ثم هو يرفض في الوقت نفسه ، أن يردّ على هـذه المواقف بما هو طبيعيّ ، أي بالحقد ، كما يرفض الإغضاء والتجاوز ، لأن الإغضاء في مثل هذه الحال ، إنكار لما يشعر ، والتجاوز إذ يكون ، لا يُفهم على حقيقته ، بل يُردّ إلى سببٍ أو آخر في كيانه الشخصيّ ، المنفصل عن الحقائق الموضوعية ، والوقائع الثابتة .

ها هو إذن كشاعر ، حيال مشكلة عاطفية كيانية ، فكيف حلّها ؟

— لا سبيل إلى إيضاح ذلك إلا بالاطلاع على أشعاره . وجملة ما يؤخذ من هذه الأشعار الزنجية الفرنسية أن صاحبها احتفظ بنوع من « المسافة » بين شعوره وثقافته ، بين عاطفته وفكره ، بين واقعه الراهن وما يطمح اليه . وهذه المسافة التي احتفظ بها أعانته إعانة كبرى على رؤية الواقع في جانب ، والسير نحو تغييره بما هو أحسن في جانب آخر .

وهكذا استطاع أن يرى بكل وضوح أن لا جدوى من الحقد ، فالذي فات فات ، ولكن المجال واسع للعمل على تدارك الأخطاء ، وإنقاذ الجاني والضحية معاً ، فما كان منه إلاّ أن حنا على الجاني بالعطف نفسه الذي يحمله تجاه الضحيّة ، وراح يخاطبه بلغته ، معبّراً عن معانٍ وصور وأفكار وأنغام هي من صميم تراثه ، وبذلك وُفّق إلى بيان حقيقته والتغلّب على ما يجب التغلب عليه إن في نفسه ، وإن في غيره .

على أن في موقف سنغور الشعري هذا ، عنصراً مساعداً يصعب على أكثر الباحثين التقاطه ، وهو أنه ينظم بالفرنسية ، ويواجه الحضارة الغربيـة من خلال ثقافته الفرنسية ، ولو أنه واجهها من زاوية انكليزية مثلاً أو ألمانية ، وأصرّ على « التمركز » في زنوجته ، كما هو شأنه وواقعه ، لاضطرّ إلى تضييق المسافة بين عاطفته وفكره ، والانزلاق شيئاً فشيئاً نحو عاطفته حتى يذوب

كلّ تجاوز عن أخطاء الجاني ... وهذا ما حدث لشاعرٍ ينظم بالانكليزية ، ولا يرقى شكّ إلى إنسانيته ، وهو طاغور .

ولكن ما أعان سنغور هو أن الثقافة الفرنسية تنطوي ، حتّى في إطار الاستعمار على نزعة إنسانية خيّرة ، لم تتمكن فرنسا من إغفالها أو الانتفاض عليها ، وكان ذلك من حسن حظها وحظ الشعوب التي بسطت عليها سلطانها .

كثيرون هم الذين ينسون — كما بيّنت في مقدمة هذه الدراسة — أنّ أهم مبدأ جاءت به الثورة الفرنسية الكبرى ، إنما هو « الاخاء » ، فالبشر في نظر الفرنسيين الأقحاح لا المزيفين ، إخوة ، ولهم حقوق متساوية . ومن طبيعة هذا المبدأ أن يردّ الشعور العنصري إلى درجة الصفر ، أو على الأقل ، يضعف من سوْرَته ، ويمنعه من التأثير الحائف ، والتصرف الجائر .

ولذلك نجد سنغور يتحرّك بحرية ، حين يشعر أن السنغال مثلاً ، والزنوج عموماً ، يمكنهم اصطناع الثقافة الفرنسية والاحتفاظ بأصالتهم ، دون أن يتعرض وجودهم الداخلي العميق لما يضعفه أو يجعله مضطرباً .

والدليل على صحة ذلك أشعار سنغور نفسه . وهو الذي وضع ستّ مجموعات شعريّة بالفرنسية ، وهي :

— أغاني شبح .
— قرابين سوداء .
— حبشيات .
— ليليّات .
— قصائد غير منشورة .
— ترجمات .

وهذه المجموعات الست هي التي يشتمل عليها ديوانه الأخير « قصائد » الذي نشرته « منشورات Seuil » ١٩٦٤ .

والمقتطفات التي نترجمها هنا مأخوذة من تلك « القصائد » .

أغاني شبح

تذكار اموات

هذا هو يوم الأَحد

إن بي خشيةً من أَشباهي ذوي الوجوه الحجريّة

من برجي الزجاجي الذي تقطنه ضروب الصداع العديدة ،

ويقيم فيه القدامى الذين فرغ منهم الصبر .

وإني لأَتأَمّل السطوح والروابي في الغمام

فأَرى المداخن في غمرة السكون ، صارمة عارية

وترقد عند أَقدامها أَمواتُ أَحلامي التي صنعت من غبار.

كلّ أَحلامي ، ودمها المجاني المهدور على مدى الشوارع ،
يمتزج بدم الذبائح .
والآن ، من علياءِ هذا المرصد وكأَنه ضاحية مدينة ،
أَتـأَمل أَحلامي وهي سادرة مدى الشوارع ، راقدة عند
أَقدام التلال
شأْنها شأن السوّاقين من بني جنسي على ضفاف غامبيا
وسالوم .
أَتـأَملها الآن من نهر السين ، عند أَقدام التلال .
دعوني أُفكر في أَمواتي . لقد كان أَمس ذكرى توسان ،
والموسم السنويّ الرائع للشمس ،
ولكن ما من ذكرى في أَي مقبرة .
أَيها الأَموات الذين كانوا أَبداً يرفضون أَن يموتوا ،
وعرفوا كيف يقاومون الموت ،
من السين إلى السين ، وفي حرو في المهلهلة ، يا دمي الذي
لا يحول ولا يزول
صونوا جميعكم أَحلامي كما صنتم أَولادكم المهاجرين
ذوي السيقان الناحلة

أَيها الأَموات ! دافعوا عن سطوح باريس في الغمام الأَحدي

هذه السطوح التي تحمي أَمواتي ،

كي أَنزل من برجي الآمن بخطر ، إلى الشارع

مع إخوتي ذوي العيون الزرق

والأَيدي القاسية .



باب مذهب

اخترت منزلي على مقربة من الأَسوار التي أَعادت ذاكرتي
بناءَها بعلو الأَسوار .

تذكرت جُوال ذات الطيف الجميل ، ووجه التراب ،
ودمي

فاخترته بين المدينة والسهل ، حيث تنفتح المدينة على
نسمات الأَحراج المنعشة الأُولى ، وعلى الأَنهار .

وحسراتي ، إنما هي تلك السطوح التي تنزف على
ضفاف المياه ، تهدهدها الالفة الحميمة التي تربطها

بالغابات الصغيرة .

وأَنا ذاك الذي تدور به أَصغر سيارة أُجرة متواضعة ، وتجعل قلبه يترنّح فوق أَعلى أَمواج الأَطلسي .

أَنا من يتداعى بتأْثير سيكارةٍ واحدة ، كما يتهاوى البحّار على طريق المرفإِ

أَنا من يقذف دوماً بالكلمات التي لا تخجل ، كلما ابتعد ابتعاد التلميذ الكسول عن آنسة الطريق ، وهو يقول لها : «بونجور يا آنسة ... كيف حالك ؟»



الإعصار

الإعصار يقتلع كلّ ما حولي
والإعصار يقتلع مني الأوراق والكلام التافه .
وهناك زعازع من هوى تهبّ صاخبة في صمت
ولكن سلام على اللفحة الجافة ، على الهرب من الشتاء والإشتاء .
وأنتِ أيتها الريح الملتهبة ، الصافية ، يا ريح الفصل البديع ! أحرقي كل زهرة ، وكل فكرة باطلة ،
حين يعود الرمل ويتساقط على كثبان القلب .

أَيتها الخادم ! قفي عن الايماء ، إيماءة التماثيل ، وأَنتم
أَيها الأَولاد ! قفوا عن أَلعابكم وضحكاتكم العاجيّة .

أَما أَنت فلتضرم صوتك مع جسدك ، ولتجفّفْ عطر
بدنكَ

هاتيك الشعلة التي تشيع النور في ليلي ، كأَنها عمود
أَو نخلة باسقة

وأَنت ، أَيتها الروح ، أَضرمي شفاهي الدموية ، وانفخي
في أَوتار قيثارتي

وليرتفع غنائي صافياً صفاءَ الذهب في مناجم غالام .

رسالة الى شاعر «الى ايميه سيزير»

سلامي الأَخويّ العاطل من كل طلاء ، إلى الأَخ المحبوب
والصديق !

النوارس السود والشحارير التي تطيل آماد الغزل جعلتني
أَتذوق أَقاصيصك

تلك الأَقاصيص التي مزجتها بالأَفاويه والضوضاء العطرة
المنبعثة من أَنهار الجنوب والجزر

وهي التي حدّثتني عن رصيدك من الحياة ، عن شموخ
جبينك ، وزهرة شفاهك الرقيقة .

وأَنها هي التي تتلمذت عليك خليّة صمت ودولاب طاووس .

وأَنك تمسك بناصية حماستها ظامئة ، لاهثة حتى مطلع القمر

أَهو عطر ثمارك الأُسطورية ، أَم ثلم النور الذي تودعه الضحى في ريعانه ؟

يا ما أَكثر النساء ذوات الإِهاب الجميل ، والثمر المسكر في حرم ذهنك !

إن جمرة موسيقاك المضطرمة التي كانت تهفو اليها أَيدينا وقلوبنا ، أَمسِ الدابر

توقظ فيَّ السحر من وراءِ السنين ، وتحت رماد جفونك

أَتكون قد نسيت موطن النبل فيك ، وهو أَن تغنّي ،

وتتغنّى بالقدامى ، بالأُمراء والآلهة الذين ليسوا أَزاهير ولا قطرات ندى ؟

لقد كان عليك أَن تقدّم للأَرواح ثمار بستانك البيضاء.

ـ أَنت ما كنت لتأكل سوى الزهرة المجتناة في السنة نفسها ، سوى العسل المصفَّى

ولا كنت لتختطف وريقة تويج واحدة لتعطر بها فمك.

إني لألمس من أعماق ذاكرتي محياك وأعترف منه الماءَ الذي يندى به أسفي الطويل .

وأراك تتمدّد تمدّداً ملوكياً ، مستنداً إلى وسادة هي تلّ ناصع

ورقدتك تبهظ الأرض التي تتألم ولكن برفق ونعومة

والتمتمات ، في السهول الغرقى ، توقع غناءَك .

وأبياتك أنفاس الليل والبحر البعيد

كنت تغنّي القدامى والامراءَ الشرعيين

وتقطف نجمة من العرش العلوي قافية

لها إيقاعها في غير وقته . وكان الفقراءُ ، عند قدميك العاريتين ،

يلقون بما كسبوا طيلة سنةٍ كاملة .

والنساءُ يلقين عند قدميك العاريتين قلوبهنّ العنبريّة ، والرقص الذي انتزعنه من أرواحهن .

صديقي يا صديقي – إيه – ستعود ، ستعود !

وسأَنتظرك – رسالة أَودعتها ربان الزورق – تحت شجرة الكاييسيدرا

ستعود في مأْدبة البواكير ، لحظة يرتفع فوق السطوح دخان المساء بطلاوته مع هبوط الشمس الغاربة .

ولحظة يأْخذ رياضيو الشبيبة في إجالة شبابهم ، وقد تزيّنوا زينة العرائس يليق بك حينذاك أَن تعود .



طول النهار

ها أَنا طول النهار ، على السكك الطويلة الضيقة
وإرادتي لا تلين فوق الرمال الضجرة المضجرة
عِبْرَ قفار كابّور وباوُول ، حيث تتهدّل أَذرع شجر الباوُباب من القلق

ها أَنا طول النهار ، وطول الطريق الطويل
تمر من خلال المحطات الصغيرة المتشابهة ، بنات زنجيات صغيرات أَثناءَ خروجهن من المدرسة ، من القفص وهنَّ يثرثرن

ها أَنا طول النهار على مقاعد القطار الذي يهز هزًّا عنيفاً ، وقد ملأَه الغبار والصدأُ .

أَراني أَبحث كيف أَنسى اوربا في قلب منطقة السين الريفيّة .

ليلة في السّير

أَيتها المرأَة ! ضعي يديك البلسميّتين ، يديك اللتين تفوقان الفراءَ بنعومتهما ، على جبيني .

وهناك ... في الأَعالي ، تكاد شجرات النخيل المتمايلة تضجُّ هامسةً فرحاً بلقائنا ، ولكنها لا تفصح . ولا تعكر الهدأَة حتى أُغنية المرضع .

فليهدهدنا ذلك الصمت الموقَّع !

ولنصغ إلى غنائه . لنصغ إلى دمنا القاتم ! لنصغ إلى نبض أَفريقيا العميق في ضباب القُرَى الضائعة .

ها هو البدر ينحدر متعباً نحو سريره في البحر الساجي .

ها هي قهقهات الضحك ترتمي في نعاسٍ صامت ، والحكواتيون أَنفسهم

يحنون رؤُوسهم مثقلي الأَجفان ، كما هو شأْن الطفل على ظهر أُمه

وها هي أَقدام الراقصين تثّاقل ، كما يثّاقل معهم لسان الكورس .

إنما هذه هي ساعة النجوم والليل الذي يحلم

وقد اتكأَ على هذه التلة من الغمام ، وتلفع بجبّة طويلة من الحليب

وسطوح الغُرَفِ تأْتلق برقّة . فما هو ذاك الذي تقوله في سرية شديدة للنجوم ؟

وفي الداخل ، تنطفي الموقدة بائتلاف حميم مع الروائح الشديدة والناعمة .

أَضيئي أَيتها المرأَة ، مصباح الدهن الصافي الذي كان يتحدّث حوله الأَجداد كالأَهل ، كالأَولاد في السرير .

ولنستمع إلى صوت القدامى ، قدامى اليسا ، وكانوا مثلنا مُبْعَدين ،

لم يريدوا أَن يموتوا وضاع في الرمال سيل بذارهم

أَضيئي لأُصغي في الغرفة التي يغمرها الدخان ويغشاها طيفٌ من الأَرواح المطمئنة الناعمة

ورأْسي في حضنك الدافىء ملءُ الحرارة والحياة

أَضيئي ذلك المصباح لأَنشق عبير أَمواتنا ، وأَلتقط أَصواتهم الحيّة وأُردّدها على مسامعكم ،

ولأَتعلم كيف أَحيا قبل أَن أُوغل ، وأَسبق الغواص ، في أَعماق السبات الرفيعة .

امرأة سوداء

أَيتها المرأَة العارية ، أَيتها المرأَة السوداءُ
يا من تدثّرت بلونك وهو الحياة ، وقالبك وهو الجمال!
لقد نموت في ظلِّك . وكانت نعومة يديك تعصب عينيّ
وها أَنا وقد كبرت ، إِذا بي أَكتشفك أَرض ميعاد في
قلب الصيف ورادَ الضحى من علياءِ شفير عالٍ مضطرم .
وجمالك يُصعقني في شغاف قلبي ، كما يُصعق البرق
النسر
أَيتها المرأَة العارية ، أَيتها المرأَة الغامضة !

أَيتها الثمرة الناضجة ذات الجسد الصلب المكين .
يا نشوة النبيذ الأَسود القاتمة !

يا ثغرا يردّ ثغري إلى الغناء !

يا غابة ذات آفاق صافية ! يا غابة ترتعش لدغدغات ريح الشرق المتحمسة .

يا تمتمةً صيغت في تمثال ! يا تمتمة متوترة تزمجر بين أَصابع المنتصر

إن صوتكِ الحادّ المشاكس ، أُغنية روحية تعزفها المحبوبة

أَيتها المرأَة العارية ! أَيتها المرأَة الغامضة !

يا زيتاً لا يملك أَن يغضّن صفحته الملساءَ نفس من الأَنفاس ! يا زيتاً هادئاً له أَوراك فتى عتليت ، وخصر أَمير من أُمراءِ مالي .

يا غزالةً ذات سلاسل سماوية ! اللآلئُ تبدو نجوماً فوق ليل إهابِكِ .

يا طلاوة الروح المرحة ! لمعات الذهب الأَحمر على إهابِكِ الأَسود المؤتلق تبدو باهتة ، خافتة .

وفي ظل شعرك ، تـأْتلق برحائي على ضوءِ الشموس المشرقة
من عينيك القريبتين

أَيتها المرأَة العارية ! أَيتها المرأَة السوداءُ !
إِني لَأُغنِّي جمالك العابر ، هذا الشكل الذي أُوطِّده في
عالم الخلد ،
قبل أَن يحوِّلك القدر الغيران إِلى رماد ، تتغذَّى به
جذور الحياة .



قناع زنجية الى بابلو بيكاسو

إنها لتنام وتستجمُّ فوق سذاجة الرمل .

كومبا تام ترقد . وهناك نخلة خضراءُ تحجب حمَّى
شعْرها ، وتردّ جبينها المنحني إلى لون النحاس .

وقد أَغمضت جفنيها ، وهما ينبوعان مزدوجان مخبوآن

وهذا الهلال الرقيق ، هذه الشفة الأَكثر سوادا ، التي
تكاد تكون غليظة ،

ـ أين تتآمر ابتسامة المرأة ؟

وأَقاح الجذور ، والقسمات الأُخرى تغنِّي فيما بينها

الوفاق الصامت .

وجه قناع مغلق على كل ما هو عابر مؤقت ، من غير عيون ولا مادّة تعبّر

رأْس من البرونز كامل ، وصدأُ الزوان يعلوه

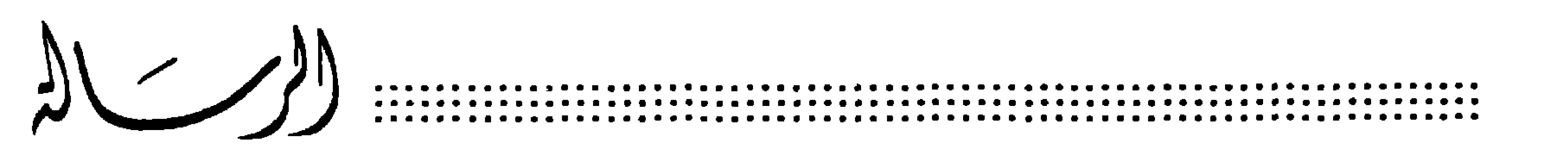
فلا يُلوِّنه خضاب ، ولا احمرار ، ولا غضون ، ولا آثار دموع ،

ولا آثار قبل .

أَيها الوجه النقيّ كما خلقك الله قبل العصور

يا وجه فجر العالم ! لا تنفتح انفتاح عنقٍ رقيق ليثير بي الجسد .

إِني لأَعبدك أَيها الجمال ، بعيني ذات الوتر الواحد !



الرسالة

أَوفدوا إِلي رسولًا سريعاً

قطع عنف الأَنهار ، وغاص حتى الأَوراك في حقول الأَرُزِّ

وهم يعنون بذلك أَن الرسالة ضرورية ، معجلة

وتركتُ الطعام ساخناً ، وأَهملتُ العناية بعديد المنازعات

وتخليت عن الزاد ، ولم آتِ بشيءٍ معي لأَصابيح الندى

كلّ ما لديّ : كلمات سلام بيضاء ، تفتح لي كل سبيل

وكان أَن قطعت أَنا أَيضاً ، أَنهارا وغابات وعرة عذراءَ

حيث تتصدّى العلّيقات والعواسج للمارّة وتعلق بهم في
خبثٍ يربو على خبث الأَفاعي
ومررت بشعوب تلقي عليك تحية مسمومة
غير أَني لم أَفقد بشارة عرفان الجميل
وظلّت الملائكة تحرس الحياة في أَنفاسي .
وتعرّفت إلى رماد الأَجداد الساهرين (العسس) والضيوف
الوارثين .
وتبادلنا الأَحاديث الطويلة الممتعة تحت أَشجار الكايسيار
والهدايا التقليدية .
وبلغت إليسا ، عشَّ العصفور التي تتحدّى استعلاءَ
الفاتحين
ورأَيت المقام القديم فوق الرابية ، وهو قرية ذات أَهداب
طويلة مسبلة
وتلوت على حارس الدم الرسالة الطويلة ،
وحدثته عن الوباء الذي حلّ بالحيوانات في تجارةِ
البيض بها ، وخراب هذه التجارة ، وطرائق الصيد الحديثة
واحتشام البورجوازية

عن الاحتقار الذي لا يواكبه سِمَنٌ ، وبه تنتفخ بطون الأَسرى .

أَجابني الأَمير ، بالحرف الواحد :

«أَيها الأَولاد من ذوي الرأْس القصير . ما الذي غنتكم إياه طيور الغاب ؟

«قيل لي : إنكم تصدّون عن الوردة ، وعن أَجدادكم الغاليين

«وأَنكم دكاترة من السوربون ، تمنحون الدبلوم

«وتجمعون أَكداس الورق حين يكون لكم أَن تعدّوا نقود الذهب ، فقط على ضوءِ المصباح ، كما كان أَبوكم المرحوم يفعل بأَصابعه القويّة !

«وقيل لي : إن بناتكم يتبرّجن تبرّج المحظيات في القصور ،

«ويلبسن القبعات داعيات للزواج الحر وتنقية النسل !

«أَأَنتم أَسعد حالًا ؟ يكفي أَن ينفخ في البوق على الطريقة القديمة : وا ــ وا ــ وا ،

«لتأْخذوا في البكاءِ عند الأَماسي حول النار

« هل لي أَن أَسرد عليكم مأْساة الماضي وملحمته ؟

« إِذهبوا إِلى (مبيسل) و (فاأَوي). واقرأُوا الترانيم التيَ غمرت (السكة الكبرى) .

« وأَعيدوا بناءَ الطريق الملكية ، وتأَملوا في طريق المجد هذه والصليب

« وسيجيبكم كهنتكم الكبار : صوبَ الدم !

« إِن شهداءَ أَليسا أَجمل من الأَزهار ، فقد كانت شهوات بطونهم أَقلّ ما يمكن أَن تكون .

« وكان ترس الشرف لا يفارقهم طرفة عين ، ولا هم تخلَّوا يوماً عن رماحهم الملوكية .

« ولا كانوا يجمّعون الخرق البالية ، ولا الجنيهات لتزيين دماهم

« وكانت قطعانهم تملأُ البراري ، كما كانت خيامهم ذات الظل الإِلهي تملأُ السهول .

« وأَهراؤُهم كانت تعجُّ بالغلال والأَطفال .

« صوت الدم ! أَفكار للاجترار .

«وسيجيءُ الفاتحون زحفكم ، وسيكون أَولادكم تاجاً
أَبيض لرؤوسكم . »
سمعت كلام الأَمير
داعية النبإِ الخيِّر ، وهذه هي وصيته العاجيّة .

إلى إيمي بايفيل الممرضة

إِيما بايلفيل !

إِن اسمكِ سيحطِّمُ صُوَرَ الحكام «المبودرة»

أَنتِ الصبية الواهية القوى ، الضعيفة الأَركان .

لقد هدّمت الأَسوار التي أَقامتها المراسيم بيننا وبينك ،

ونسفت الحواجز التي تفصلنا عنكِ .

أَنت التي تجهلين «تقنية» المكاتب ، وليس لديك كتابٌ

ولا قاموس

ولا ترجمان دقيق الأَداءِ ، عرفتِ كيف تخرقين بعينيك

جدار الأَسوار الكثيفة

وبعينيك نفذت إلى أَجساد السود وسرها الثقيل

بعينيك نفذت من أَجل عيون السود الشفافة عن ماءٍ صافٍ ، زلال

ويداك ... يداك وراءَ نعومة الأَجساد السوداء

وهي النعومة الأَخوية في نظرك وحدكِ

يداك اكتشفتا الأُخوة الإِنسانية ، ويداك وحدهما عرفتا الطريق إلى اقتلاع آفات بؤسهم

كم من العبقريات البغيضة التي قضت القرون ولم تحسن القيام بالعمل الشاق الذي أَتقنتِ أَداءَه !

أَنتِ يا ذات اللون الحليبي ، لون الطفل

سيحطم اسمك تماثيل الحكام المبودرة

وستظل ذكراك ، وراءَ وجهك النيّر ، في ملتقى قلوب السود

محفوظة إلى الأَبد ، تحت الظلمات الوفية ، في أَعماق ذاكرتهم السوداء .

ثلج فوق باريس

سيدي . زرت باريس في يوم مولدك هذا

لأَنها أَصبحت مسكينة ، عاطلة

وطهّرتها بالبرد الذي لا يفسد

بالموت الأَبيض

أَصبح كل شيء في هذا الصباح يغنّي ، حتى مداخن المصنع راحت تنشد

وهي ترفع الأَعلام البيضاء :

«سلام على الرجال ذوي النية الطيبة » !

سيدي ! قدّمت ثلج سلامك للعالم المتفسخ ، لأُوربا المنقسمة

لاسبانيا الممزَّقة

واليهوديّ المتمرّد ، والكاثوليكي أَطلق أَلفاً وأَربعمائة طلقة من مدفعه على جبال سلامِك .

سيدي ! رضيتُ بردك الأَبيض الذي يحرق أَكثر من الملح .

ها هو قلبي يذوب كما يذوب الثلج تحت الشمس .

وإني لأَنسى .

أَنسى الأَيدي البيضاء التي أَطلقت تلك البنادق وبها تهدّمت الأَمبراطوريات

والأَيدي التي جلدت العبيد ، وجلدتك .

والأَيدي البيضاء المبودرة التي كانت تصفع ، الأَيدي المصبوغة المبودرة التي صفعتني .

والأَيدي القوية الواثقة من قوتها التي أَسلمتني للوحدة والحقد .

والأَيدي البيضاء التي انهالت على غابات أَفريقيا ، في قلب أَفريقيا العذراء .

وامتدت إلى الغابة السوداء ، فأَخنت عليها ، ومحقت جمالها لتجعل منها معابر تجتازها سكك الحديد .

كان أَن مُحِقت غابات أَفريقيا لإِنقاذ الحضارة ، ولأَنَّ المواد الأَولية البشرية كانت تنقصهم .

سيدي ، لن اظهر احتياطيّ الحقد الذي أَختزنه ، للدبلوماسيين الذين يكشِّرون عن أَنيابهم الطويلة . أَعرف ذلك .

هٰؤلاءِ الدبلوماسيين الذين يسلكون غداً أَجساد الزنوج في السلاسل .

ذاب فؤادي ، أَيها السيد ، ذوبان الثلج على سطوح باريس ،

وتحت شمس لطفك

إِنه عذب في فم أَعدائي ، إِخواني ذوي الأَيدي البيضاء من غير ثلج

ذاب فؤادي بسببٍ من أَيدي الندى أَيضاً التي تمتدّ في المساء طول أَيامي المحرقة .

صلاة للأقنعة

أَيتها الأَقنعة ! إِيهٍ أَيتها الأَقنعة !

أَيها القناع الأَسود ويا أَيها القناع الأَحمر . إِنكما تقنِّعان الأَبيض والأَسود

أَيتها الأَقنعة في الجهات الأَربع حيث تهبّ الروح .

أُحييك في أَعماق الصمت !

ولست أَنتَ الأَخير ، أَيها الجدّ العتيق ذو رأْس الأَسد

أَنت تحرس هذا المكان الذي ضاع ، من ضحكة كل امرأَة ، ومن كل ابتسامة ذابلة ،

وتقطّر طلعة الأَبدية هذه التي أَنشق فيها أَنفاس آبائي

يا أَقنعة وجوه بلا قناع ، وقد تجردت من كلّ أُخدود وعريت من الغضون .

أنت التي أَلفت هذه الصورة ، هذا الوجه الذي أَحمله ، المنحني على مذبح الورق الأَبيض .

أَلفتِها على صورتك . إستمعي إلي !

ها هي أَفريقيا الأَمبراطوريات تموت : إنه احتضار أَميرة يُرثى لها

وهو أَيضاً نزاع أَوربا التي ارتبطنا بها منذ نعومة أَظفارنا وأَظفارها .

لتكن عيونك أَبداً على أَبنائكِ الذين يوجهون إليهم الأَوامر

هؤلاءِ الأَبناء الذين يعطون حياتهم على نحو ما يعطي الفقير آخر ثوب من ثيابه .

وليكن جوابنا «حاضرين» لنداءِ انبعاث العالم ،

تماماً كما هو شأْن الخميرة الضرورية للطحين الأَبيض

وإلا فمن يعلِّم النغم عالمَ الآلات والمدافع ، هذا العالم الدفين المرحوم ؟

من يصرخ صرخات الفرح ليوقظ الأَموات والأَيتام على الفجر ؟

قولي ! من يعيد ذاكرة الحياة إلى الإنسان الذي خابت آماله ؟

انهم يقولون : إنا رجال القطن ، والقهوة ، والزيت .

ويقولون : إنا رجال الموت .

ونحن . في الحقيقة ، رجال الرقص الذين تزداد أَقدامهم حماسة كلما ضربت الأَرض القاسية .

التميمة (الطوطم)

عليَّ أَن أُخبّئَه في أَعماق شراييني
هذا الجدّ القديم ذا إهاب العاصفة الموشّع بالبروق
والصواعق
حيواني الحارس هذا عليّ أَن أُخبّئَه
وأَن لا أَهدم سد الفضائح
إنه دمي الأَمين الذي يتطلب الأَمانة ،
ويحمي كبريائي العارية ويمنعها ،
مني ومن عنفوان الاعراق السعيدة

رقصة «انديسه»

كان الربيع ينقل فوق عجلاته قطع الجليد على سيولي المنسرحة

ونُسْغي الصغير ينبجس لدى المداعبات الأُولى فوق القشرة الطريئة

وها أَنا مع ذلك في صميم تموز أَكثر غمّى من الشتاءِ في القطب

أَجنحتي تصطفق وتجرحها مصاريع السماء المنخفض

وما من شعاعٍ واحدٍ ينفذ الى هذه القبّة الصمّاءِ من ضجري

أَية إِشارة أُلاقي ؟ وأَي مفتاح من الضربات أقرع بيَدي ؟

وكيف لي أَن أَبلغ الاله ذا النبال البعيدة ؟

أَيها الصيف الملكي في الجنوب النائي . إِنك لا بد واصل ، ولكن متأَخراً في أَيلول المحتضر !

في أَي كتابٍ أَجد حرارة انعكاسك ؟

وعلى صفحات أَي كتاب ، وعلى أَية شفةٍ أَجد حبّك الهاذي ؟

إِن فراغ صبري يتعبني . آه ! يا لضجيج المطر فوق الأَوراق الرتيبة !

اعزف لي أَيها الدوق أَغنية « الوحدة » الوحيدة ، لأَظل أَبكي حتى الموت .

❋

الى الموت

روّعتني أَيضاً في هذه الليلة
هــذه الليلة التي لا ينيرها قمر عــلى حافة الغدير الخبيث ،
فكنت فهداً ،
رُشِقْتُ به من قوس غصن .
آهٍ ! نار براثنك في أَحشائي ، والقلق ...
ذلك القلق الذي يجعلني أَصرخ في منتصف الليل حتى
أَخمص قدميّ المرتجفتين الأَسيرتين

أَيها الموت الذي لا يصبح أَبداً أَلوفاً ، يا من يزور
ثلاث مرات في اليوم !
إنِّي لأَذكر ركضي وراءَ الحياة كما لو كنت أَركض وأَنا
طفل ، وراءَ ثمرةٍ مثقلة تتدحرج من علياءِ شجرة افريقية
وإذا بها تستقرّ وتهدأُ على ظهرها فوق الأَرض .
أَيها الموت الرهيب الذي يحمل على الهرب أَمامه ، كما
يهرب المقاتل سبع مرات حول المدينة ذات الأَبواب السبعة
أُنظر إليّ في ريعان الصبا ، والهوى ، والارادة
في هذا الموسم الشتوي من الأَمطار ، و «الرشوحات» ،
موسم براثنك العميقة
أَلم تشعر بقوة أَحشائي ، ومضاءِ العزيمة في عضلاتي ؟
أَنا أَعرف أَن الشتاءَ سَينجلي عن يومٍ ربيعيّ طويل
وأَنّ عبير التراب سيرتفع وينتشر ، ويسكرني أَكثر
مما يسكرني
عطر الأَزهار
وأَن الأَرض ستمدّ ثدييها القاسيين لترتعش تحت
مداعبات المنتصر

وأَنني سأَثب وثبة حامل البشارة ، وانني سأُمثل افريقيا
كناحت الأَقنعة ذات النظرات الحادّة ؛

وأَن المرأَة ذات الوجه الأَسود والرأْس الوحشي التـي
انطلقت من غير أَن تنبس بكلمة ، أَو أَنبس معها بكلمة

ستعود الى العشب ، مازجة صوتها الجهوري بجوقة
الفجر .

ستعود ذات يومٍ من أَيام الشتاء المشرقة في جزيرة
فرنسا .

تحرّر

كانت سيول دمي تهدر على طول حفافي حُجْرتي الصغيرة ،
وكان ذلك خلال أَيامٍ وليالٍ أَطول من الليل
وكانت السدود والجدران الثقيلة صامدة تحت ضربات
المنجنيق
وكنت هناك أَلطم رأْسي لطم ولد عصبيّ أَصابه القنوط ،
وقلت « السلام » لروحي ، بإشارة من دليلي الملاك ،
ولكن أَي صراع هذا ، أُرهق به جسدي ، ومن غير
دلاّك !

كنت أَعمل بصبر فلاَّح ، وأُنفق في الشغل سبع‌عشرة ساعة في اليوم الصائف

وحين دنا موعد القطاف ، وهَدّد الأَيام الطقس الراعد ،

أَضعت ذلك الصباح ، ذاكرة الأَيام ، ومديريــات النواحي

وأَحسست على خدّيّ بحليب الحقيقة الطازج

كان الليل ما يزال ، في الخارج ، منسدلاً ، وليس هناك من نجمةٍ واحدةٍ في أَنـأَى مزرعة ، وأَضيعها

وفي ميعة الفجر الذي راح يغمرني رويداً رويداً ، وطلاوة العشب الأَخضر الرقيق المندّى بعذوبةٍ ما كانــت قطّ كاذبة ،

رَفَعْتُ بنظري ،من وراءِ الشمس ، أَستشرف أُفق الشرق ،

فأَبصرت النجوم تبزغ ، وسمعت أُنشودة السلام

ومذ تحرّرت من سجني ، أَسفت على الخبز ، وعلى المقعد الذي كان يسبب لي الارق .

عطلة صيف

هذا الفراق الطويل ، الطويل على قلبي .

هذه العطلة من ثلاثة أَشهر ، كأَنها ذلك الرواق المظلم
الذي أُقيم فيه سجيناً
طول ثلاث سنوات
أَضعتُ خلالها ذاكرتي ، ونسيت معها الأَلوان
حتى محياكِ الذي استعيد على البعد صُوَرَه ، لا أَقدر
بعد على استعادتها في مخيلتي المغلوبة على رؤاها .
ولا صمتكِ البعيد كأَنه تذكار ينسى نفسه .

إنما بقيت رائحة شعركِ الحارّ من وهج الشمس
ولا شيء سوى ملامسة ياقتي الرفيعة المرنة لخدي
وبقي أَلق جبينكِ الرائع !
كيف أَنسى رواءَ الشمس الساطع ، ونَغَمَ العالم :ليلاً ونهاراً .

وخفقان فؤادي الواله الذي يمنعني من الكرى مدى ليالٍ طوال .

ووجيب قلبكِ الذي يواكب ذلك الخفقان ، في غير وقته .

والأَناشيد المتعاقبة المتشابكة ؛ وأَنت الشبّابة النائية التي تجيب في الليل

من الشاطىء الآخر للبحر الداخلي الذي يجمع بين المنطقتين المتعارضتين من الأَرض .

بين الأُختين اللتين تكمّل الواحدة منهما الأُخرى : أُولاهما في لون اللهب ، والثانية قاتمة في لون الخشب النفيس.

محياك !

لا شك أَنه هو ، لا ! إِنها ظلمة سجني ! لا ، إِنه بَلَلُ حياتي

الذي يمحو كل لون وكل رسم ، كما الشمس الظافرة عند مطلع الشتاء .

حين لا تكون قطرة الماءِ الأُولى قد سقطت بعد .

وتكون البلاد بيضاء والرمال تترامى بلا حدود .

إِني لأَعرف الفردوس المفقود ، فلَنا لم أَفقد بعد ذكرى بستان الصبا حيث تزدحم العصافير كالأَزاهير .

وأَعرف أَن الحصاد يأْتي في أَعقاب الشتاء البغيض ، وأَنكِ تعودين يا حبيبتي .

ستكونين بين ذراعيّ كحزمةٍ ثقيلةٍ سمراءَ

أَو ككأْس النصر الذي يحرزه الرياضي المنتصر ، وهو يشعر أَنه إِلٰه .



الى الجنود الزنوج الاميركيين" مهداة الى مرسر كوك

لم أَعرفكم ، وأَنتم من ثيابكم العسكرية ذات اللون الكئيب ، في سجن

لم أَعرفكم وأَنتم تلبسون الخوذة من غير حمائل ،

لم أَعرف صهيل جيادكم الحديديّة المرتجف ، تلك الجياد التي تشرب ولا تأْكل .

وما هذا من نبل الفِيَلَة الذي مضى عهده وانقضى ،

إنه ثِقَلُ الوحوش البربري ، تلك الوحوش التي كانت في عهود ما قبـــل العالم .

أَنا لم أَعرفكم وراءَ هذا الوجه المغلق .

إنما لمست حرارة يدكـم السمراءِ فقـط ، وتسمّيت باسم «أَفريكا» .

ووجدت الضحكة تائهة ، وحييت الصوت القديم وزمجرة شلالات الكونغو

أَيها الاخوة لا أَدري إذا كنتم أَنتم قصفتم الكاتدرائيات مفخرة أَوربا .

أَو إذا كنتم أَنتم الصاعِقة التي أَحرق بها الله سدوم وعمورة .

لا ! أَنتم رسل رحمته ، ونفحة الربيع بعد الشتاء ،

إلى أُولئك الذين نسوا الضحك ـ فهم لا يستخدمون بعد سوى ابتسامةٍ زوراءَ ملتوية

والذين لا يعرفون بعدُ سوى نكهة الدموع المالحة ورائحة الدم المثيرة .

إنكم تجلبون ربيع السلام ، والأَمل بعد الانتظار

ثم تمتلىء لياليهم بعذوبة الحليب ، وحقول السمـاء

الزرقاء تنغمر بالأزهار ، والصمت يتغنّى بحنجرة عذبة الجرْس .

إنكم لتأتونهم بالشمس . وإذا الهواء يخفق بهينمات تسيل سيلان الماء ، وزمزمات بلورية ، وخفقات أجنحة ، حريرية .

والمدائن الهوائية ترطبها الأعشاش

والصبيان في الشوارع التي تقطر فرحاً يلعبون بأحلامهم ،

والناس يرقصون أمام آلاتهم ويفاجئون أنفسهم بالغناء ،

وجفون التلميذات وريقات أوراد ، والثمار تنضج فوق صدور العذارى

وخصور النساء – يا للعذوبة ! – تثّاقل بسخاء

أيها الاخوة السود ، أيها المحاربون ! أنتم ذوو أفواه هي زهرات تغني ،

– ويا لمتعة الحياة بعد الشتاء – إني لأحييكم كرسل سلام ..

الى نيويورك

يا نيويورك ! لقد فُتِنْتُ أول الأَمر بجمالِكِ ، بهؤلاء الفتيات الذهبيات الفارعات ذوات السيقان الطويلة .

وكنت على جانب كبير من الخجل أول الأَمر أَمـام عينيك المصنوعتين من المعدِن الأَزرق وابتسامتكِ المنبعثة من الصقيع .

كنت جدّ متوجّس ، جدّ خجول . والقلق في أَعماق الشواوع ، شوارع ناطحات السحاب يرفع مقلتي بومـةٍ للشمس المكسوفة .

ضياؤكِ كبريتيٌّ ، وخوابيكِ غبراء ، تصعق السماءَ
رؤوسها
وناطحات السحاب التي تتحدى الأَعاصير فوقعضلاتها
الفولاذيّة وإِهابها الذي يعلوه صدأ الحجارة
غير أَني وقد قضيت خمسة عشر يوماً على أَرصفة
مَنْهاتان الصلعاء
لم تأْخذكِ رعدة الحمّى إلا في نهاية الاسبوع الثالث
وكأَنها وثبة فهد عليكِ .
خمسة عشر يوماً بلا بئر ولا مرعى ، وطيور السماء
جميعها
تهاوت فجأَة وماتت تحت رماد السطوح
لا ضحكة طفل يحمل زهرة ، ويضع يده في يدي
الناعمة
لا نهود أَم كاعب . كل ما هنالك سيقان نايلون
سيقّان ونهود بلا عَرْفٍ ولا رائحة
لا كلمة رقيقة في غياب الشفاه ، وليس إلا قلوب
اصطناعية يدفع لها الثمن من عملةٍ صعبةٍ قاسيةٍ

ولا من كتاب نقرأ فيه الحكمة . ريشة المصور هنـا تزهر بلُّورات مرجان .

لياليَ الأَرق ! إيهٍ يا لياليَ منهاتان ! أَنتِ التي تعجّ بنيران رعناء ، بينما زمامير السيارات تملأُ بزمجرتها ساعاتٍ ، طوالاً ، فارغة .

والمياه القاتمة تنقل فوق عجلاتها ضروباً من الغرام الصحي شأْنها شأْن الأَنهار الطامية تطفو عليها جثث أَطفال .

– ٢ –

ها قد أَقبل وقت العلامات والحسابات ، يانيويورك !

ها قد أَقبل وقت المنّ والزوفى ،

وليس إلا أَن تصيخي لأَبواق الله ، وقلبك يقرع دَمَكِ

على نغم الدم ،

فقد رأَيت في هارلم أَلواناً صارخة وروائح مشتعلة

ولها ضجيج ودويّ .

إنها ساعة الشاي لدى بائع المواد الصيدلية .

رأَيت إعداد عيد الليل لدى هرب النهار . وإني لأُعلن

أَن الليل أَصدق من النهار .

إنها الساعة الخالصة التي يبرأُ فيها الله الحياة في الشوارع

من قبل التاريخ

وجميع العناصر البرية ــ البحرية تشعّ كالشموس .

هارلم يا هارلم ! إليكِ ما رأَيت .

رأَيت نسيماً أَخضر من الحنطة ينبجس من البلاط

المحروث بأَقدام الراقصين العارية .

وأَردافاً أَمواج حرير ، ونهوداً سنان رماح ، ورقصات

نيلوفر

وأَقنعة أُسطورية .

لها حوافر جياد الشرطة ، وعناقيد الحُبّ تتدحرج من

المنازل المنخفضة .

ورأَيت على طول الأَرصفة جداول خمر أَبيض ،وسواقي

حليب أَسود في ضباب السجاير الأَزرق .

رأَيت السماءَ تنهلّ بالثلج عشية إزهار القطن ، وأَجنحة

ملائكة

وباقات ريش يزدان بها العرافون .

إسمعي يا نيويورك ! إسمعي صوتك الذَّكَرَ النحاسيّ ، صوتك المرتجف في أعالي الغابات ، وقلق دموعك المغلق يسّاقط حصى ضخمة من دم .

إسمعي قلبك المفعم بالظلام يخفق من بعيد ، نغم تمتام ودم ، تمتمة دم وتمتمة ...

– ٣ –

نيويورك ! أقول يا نيويورك ! دعي الدم الأسود يدفق في دمك .

دعيه ينزع الصدأ عن مفاصلك الفولاذية ويؤدي في حياتك دور زيت الحياة ،

وليعط جسورك انحناءة الكفل ومرونة الألياف .

ها قد رجعت الأحقاب الغابرة ، وما تحمل من وحدة مستردّة في مصالحة الأسد للثور والشجرة

وتصالحت الفكرة والعمل ، والأذن والقلب ، والاشارة والمعنى .

وها هي أَنهارك تعجّ بالتماسيح المعطَّرة والأَسماك النائحة ، ولها عيون كالسراب ، فلا حاجة بعدُ إلى اختراع حوريّات الماء .

ولكن يكفي أَن تفتحي عينيك على قوس قزح في نيسان .

وأُذنيكِ ، أُذنيكِ خاصة للباري الذي خلق السماءَ والأَرض في ستة أَيام ، وهو يضحك ضحكة سكسونية الجِرْس .

وفي اليوم السابع ، نام نومة زنجية كبرى .





الضباب يخيفني !

وهذه المنارات : عيون مزمجرة لا أَدري لأَي وحوش

تنزلق على الصمت .

هذه الظلال التي تلامس الجدار ، وتمضي

هل هي ذكرياتي ؟

التي تنساب في سلسلة متصلة الحلقات نحو الحج .

ضباب المدينة القذِر

هذا الضباب الذي يلوّث رئتيّ اللتين صدئتا في الخريف

بشحمه البارد

وراحت كلاب أحشائي الطاوية تنبح في أعماقي

بينما أخذت شكاة أحلامي المحتضرة ، الواهية ،

تجيب نباحها .

أنا وحيد

أَنا وحيدٌ في السهل .
وفي الليل
مع الأَشجار المتكمشة من البرد
التي تتضامّ بعضها الى بعض ، وأَكواعها في أَبدانها .
أَنا وحيد في السهل
وفي الليل
مع إِيماءَات اليأْس المحزن التي تومىءُ بها الأَشجار إِليّ
أَن أَوراقها تركت الجزر المختارة .

أَنا وحيدٌ في السهل

وفي الليل

أَنا وحدةُ أَعمدة التلغراف

على الطرق النائية الجميلةالطويلة

المقفرة .

الصّورة

ها هو ربيع أَوروبا
يغازلني
يهدي إليّ أَرجَ الأَرض العذراءِ
وابتسامة الواجهات في الشمس
وعذوبة السقوف الدكناء
في بلاد توران العذبة .
إنه لا يعرفُ بعدُ
عناد حقدي الذي أَذكاه الشتاء

ولا متطلَّبات زنوجتي الملحّة الشديدة

لتكفني اليوم الابتسامة

التي ترسمها شفاهك العجلى

وتتيه في حُلُم عينيك البحري

والرابية الضارية من شَعْرِكِ المرتعش

مع الريح



أتخيّل

أَتخيّل أَنك هنا
وهذه الشمس تـأْتلق
وهذا العصفور التائه ذو الغناء الغريب
حتى ليحسب المرء أَنها أَصيل صيفٍ صاحٍ
أشعر أَني أَصبحت حمقاءَ
جدّ حمقاء
أَشتهي أَن أَكون نائمة في أَغمار الحشيش
وللشمس لمسات فوق جسدي العاري
تحوم حولي فراشات ذات أَجنحة كبيرة
وجميع أَنواع هوام الأَرض ودوابّها



أَيتها اللآلىء البيضاء
يا قطيرات بطيئة
يا شعاعات وضيئة هاربة على مدى أَسلاك البرق
ومدى أَيام طويلة رتيبة دكناء !
إلى أَين تذهبين ؟
إلى أَية جنَّة ؟ إلى أَية فراديس
يا شعاعات صباي الأَولى
التي لم أَعد قط أُلاقيها ...

فيبو

يا رفيقي
أُريد أَن أَقطع جلدي الأَسود
وأَن يتبعني
أُريد أَن أَعبر ما يفصلني عنك من مسافة وعرة
وأَتخطى نبالك الساخرة النابية
يا رفيقي
أُريد أَن أَنفذ إلى قلبك ، وأَنغمس في أَحشائك الحسّاسة
من فوق جلدك الأَسمر ، المهلهل ، الذي أَثخنته الشمس
ومن فوق يديك !.

توطئة
المجموعة الأولى

هذا الكتاب هو أول حلقة في سلسلة عنوانها « حرية » وفيه جمع لشتات أهم ما وضع المؤلف من كتابات نثرية بين دراسات ، ومقدمات ، ومقالات ، ومحاضرات ، وخطابات ، وبيانات .

ولكن لِمَ هذا العنوان : « حرية » ؟ ذلك لأن الكتابات المجموعة هنا ، تلتقي عند موضوع عامّ واحد ، هو « فتح » الحرية ، باعتباره استرداداً وإثباتاً ، ودفاعاً وتوضيحاً لشخصية الشعوب السوداء ، الجماعية : الزنوج . ولا يمكن أن يكون للاستقلال الوطني معنى آخر . وكأنّ المصادفة هي التي جعلت هذه السلسلة من الكتب تحمل أسماء بعض الأحياء الجديدة في دكار : « حرية ١ » . « حرية ٢ » ، « حرية ٣ » ... ولكن ليست هناك مصادفة في هذا العام الميمون ١٩٦٣ .

العنوان الأصغر لهذه الحلقة هو « الزنوجة[١] والنزعة الانسانية »، وسيكون عنوان الحلقات التالية « أمة افريقية ، ونهج أفريقي في الاشتراكية » . وكل

---

(١) الأصل الفرنسي Négritude ، وقد رأينا كلمة « زنوجة » لتعريبها على صيغة فعولة مثل « عروبة » أفضل من أي اصطلاح آخر . (المترجم)

ما كتبه المؤلف منذ خمس وعشرين سنة ، لا يعدو هذه الموضوعات الأربعة ، وتنوّعاتها . وليس لأحد أن يتهمه بالتكرار والرتابة . وهذه التوطئة ليست مرافعة قضائية أو نقدية ، وإنما هي شرح أو تفسير . والواقع أن المؤلف لم يكن يحمل منذ نعومة أظفاره ، يوم كان تلميذاً في الحيّ اللاتيني ، من همٍّ سوى هذه الفِكَرِ الأربع ، التي انقلبت حقاً ، إلى أشباحٍ تلاحقه على الدوام . وإنها لتفسر حياته ومآثره الأدبية ، حتى عندما يبحث الشعر الفرنسي في القرن السادس عشر .

ثم إن من غير المستطاع أن يُطلَبَ إلى زنجي – أفريقي أن يعبّر كأوروبيّ أبيض . إنها قضية أسلوب ، فلا يمكن أيضاً أن يطلب إلى قائد شعب أن يتكلم كعالم من علماء الجمال . إنها « قضية طريفة » كما يقول جون بول سارتر ، فان العمل يتطلب هذا الاستحواز الكليّ على الكائن ، من قِبَل بضعة أفكار شديدة ، بضعة « أفكار – قوى » . وليس على الجانب السياسي ، وحتى العقلي ، أن يخشى التكرار والترداد في بلاد تحتاج إلى إعمار ، في أمم تعاني الصيرورة . إنه أستاذ ، وله أن يتبع طريقة الأساتذة .

إذا قورنت هذه النصوص التي نقدمها بالمخطوطات ، ظهرت مواضع الاختلاف . كان المؤلف ، بطبيعة الحال ، يُصلح ما يراه في حاجة إلى الاصلاح ، ولكن بالحذف أكثر من الإضافة ، شأنه في ذلك شأن أندره جيد ، ولكن ضمن الأسلوب الزنجي ، على كل حال . وإذا كان هنا من تكرار ، فان لدينا في الوقت نفسه ، اقتصاداً في الوسائل . ويكفي للاقتناع بصحة ذلك ، أن تقابل نصاً زنجياً – أفريقياً بترجمته إلى الفرنسية .

غير أني كثيراً ما قمت بحذف استشهادات ذُكِرت من قبل ، وما كنت أقوم بذلك دوماً ، وإنما أكرّر حين يفرض السياق الاستشهاد . بيد أن الموضوعات تظلّ إياها ، وكذلك الأفكار ، حتى في حالة انكشاف خطئها على يد الأحداث والتجارب . وهذا يتعلّق أكثر ما يتعلّق بالأفكار السياسية ، إذ من النادر أن

يكون المرء نبياً في السياسة . الجوهري في الأمر أن يكون متواضعاً أمام الوقائع ، أمام الحياة[1] .

أنا أعلم أن الجدل سيثار حول فكرة « الزنوجة » وتقسيم الناس بين بيض وزنوج ، بيد أني أخشى أن يكون النزاع حول الكلمة ، لا الفكرة . الزنوجة هي ما يطلق عليه متكلمو الانكليزية عبارة « الشخصية الأفريقية » ، فلم يبق إلا أن نتفاهم على الكلمات ودلالاتها . فهل كان للزنوج أن يكافحوا في سبيل « الاستقلال » إلا أن يكون هدفهم استرداد شخصيتهم الأفريقية ، وحمايتها وتوضيحها ؟ الزنجية هي ، على وجه الدقة ، العدوة (ضفة الوادي) السوداء لتلك الشخصية ، والعدوة الأخرى هي العربية - البربرية . وإنّ في هذا النزاع برمته ، بل أبعد منه أكثر مما هو من ناحية الكلمة ، عقدةً يخشى تشخيصها ، وبالتالي شفاؤها .

الزنوجة هي ، إذن، الشخصية الجماعية الزنجية - الأفريقية. وإنه لمما يُسرّنا أن نسمع البعض يتهموننا بالعنصرية ، ممن يفرطون في إطراء « الحضارة الأغريقية - اللاتينية » ، أو « الحضارة الانكلو - سكسونية » أو « الحضارة الأوروبية » . أليس الأمر على ما نصف أيها العزيز ، دينيس ده روجمون ؟ أليس هم بعض الاوروبيين البارزين – موريس ده لا فوس ، ليوافروبينيوس– الذين تحدّثوا إلينا عن « حضارة زنجية - إفريقية » ؟ وكانوا على صواب . وإنه ليسرّنا أن ندرسها – ونحن نحيا بها – وأن نطلق عليها اسم الزنوجة . قلت « نحن » ، وكدت أنسى أن أعطي قيصر ما لقيصر . ذلك بأنه هو الذي ابتدع الكلمة في عامي ١٩٣٢ – ١٩٣٤ .

ليست الزنوجة إذن عنصرية . وإذا هي جعلت من نفسها أول الأمر عرقية ،

---

(١) ان الاسماء الزنجية – الافريقية تظل مبدئياً ، كما هي ، أي حيادية بين التذكير والتأنيث والاسماء السنغالية التي تفرنست نتيجة الاستعمار والشيوع ، هي التي تأخـــذ وحدها علامات التأنيث والجمع . (المؤلف)

فانما كان ذلك عن مقاومة للعرقية ، كما لاحظ جان بول سارتر في « أورفيه الأسود » . والحقيقة أن الزنوجة نزعة إنسانية . ذلك هو موضوع هذا الجزء الأول من « حرية » .

إنه لمن السخف أن ننكر وجود عرقٍ أو عنصر أسود ، اختلط في غير مكان بالعرب والبربر والحوزان.ولكن العرق ، في نظرنا ، ليس وحدة بل مادّة . إنه وليدُ الجغرافية والتاريخ ، وبعبارة ثانية هو الجغرافية المكثّرة — وبالتالي المتغيّرة — على يد التاريخ . وهي لا تقلّ عن هذا واقعية ، لا بالمعنى الهتلري ، بل بالمعنى الذي رآه تيلهارد ده شاردان .

الزنوجة إذن ، هي كما أحبّ أن أقول ، مجموعة القيم الثقافية للعالم الأسود ، على نحو ما تعبر عن نفسها في الحياة ، في أنظمة السود وأعمالهم . وأقول إنّ ثمة واقعاً ، أو جملةً مترابطة من الوقائع . نحن لسنا الذين اخترعوا عبارات « الفنّ الزنجي » و « الموسيقى الزنجية » و « الرقص الزنجي » ، ولا نحن الذين ابتدأوا قانون « المساهمة » وإنما هم بيض أوروبيون . أما نحن فقد كان همنا الأوحد منذ عام ١٩٣٢ أن نأخذ هذه الزنوجة على عاتقنا ، أن نحياها ، حتى إذا عشنا بها ، أن نعمّق معناها . وذلك لنقدّمها إلى العالم ، على أنها حجر زاوية في بناء الحضارة الكونية الشاملة ، هذا البناء الذي سيكون العمل المشترك لجميع العناصر البشرية ، وجميع الحضارات المختلفة — أو لن يكون .

إن هذه الزنوجة المنفتحة ، إنما هي بذلك ، نزعة إنسانية . وقد اغتنت على نحو فريد بمآتي الحضارة الأوروبية وأغنتها . والنزعة الانسانية في القرن العشرين هذا « ملتقى التوسع الانساني » ، لا يمكن أن تتكوّن إلا بهذا التبادل بالقلب والروح ، بهذا « الأخذ والعطاء » . ولقد كنت أبدي ذات يوم لغائيتان بيكون ، إعجابي بالموسيقى الأوروبية في القرنين : السادس عشر والسابع عشر ، فأجابني : « ما أبعد ذلك عنا ! إنها عالم آخر » . صحيح ! وذلك لأن الزنجي انتقل إلى هناك بتماثيله ، وموسيقاه ، ورقصه . وما من

أحد يعرف الأمر كما يعرفه بيكون الذي يستخدم في تعريف روح هذا القرن كلمات علماء السلالات البشرية ليبين سِمَة الحضارة الزنجية ـ الافريقية : « مجابهة » ، « مساهمة » ، « تواصل » الذات والموضوع . والزنوجة إنمـا تكمن ، آخر الأمر ، في هذا الموقف أمام العالم .

ليقرأ القارىء إذن الصفحات التالية بروح إخاء . هكذا تريد رسالتنا أن تكون . وإذا كان ثمة عرق – وكيف يُنكر ؟ – فإن الصوت الذي يكلّمه هنا ، خالٍ من كل ضغينة . لقد نسينا كل شيء ، على نحو ما نعرف كيف ننسى : نسينا المائتي مليون من قتلى الزنوج ، وفظاعات الفتح ، ومذلات « أبناء البلاد » و « السكان الأصليين » ، ولم نحفظ سوى المآثر الايجابية . كنّا الحبة التي ديست بالأقدام ، الحبة التي تموت ، لتولد الحضارة الجديدة ، على مستوى الإنسان ، الكامل الكيان .

المشكلة الثقافية في افريقية الغربية الفرنسية

هل لي أن أعترف ، أم عليّ أن أخيب أملكم ؟ لقد ذكرني الحضور من مندوبي الصحف وذوي الفضل من مستمعات ومستمعين أنّ عليّ أن أتكلّم في هذه الأمسية كفلاّح من السين . (السنغال)

كنت قد تخيلت حديثاً عائلياً — وسيكون خطابي حديثاً — أمام أعضاء الحلقة (الغواية) وبعض الأصدقاء ، وافتكرت حتى في إجراء حواريّ ، على طريقة السؤال والجواب ، أو طريقة ذلك الساذج سقراط وحكيم بلادنا كوتي بارْما . وليس في نيّتي أن أقنعكم بصحة آرائي ، وإنما أن أجرّكم إلى طرح المشكلة الثقافية في افريقيا الغربية الفرنسية ، وهي أحدّ مشكلات الساعة الّتي تلح علينا بالحلّ ، وتجعل سيرنا يتعثّر ، ولها كرّست هذه الحلقة (الغواية) نفسها . أودّ أن أسوقكم ، وأنا معكم ، إلى الخلاص مما أنتم فيه من بلبلة فكرية، *إلى إيلاد هذه الروح ، روح الحقيقة الّتي تكمن مختفية فيكم*،وأودّ أكثر فأكثر أن أخلّص هذه الروح من القيود الّتي تثقلها وتربكها أيضاً من الرأي العام ، إلى المصالح ، إلى الأهواء .

سنحاول أولاً أن نعصر كلمة ثقافة ، لتفصح عن معناها الجوهري ، حتى إذا عرفت في جوهرها ومرماها ، أفضينا آخر الأمر إلى إيضاحها على ضوء العرق والبيئة ، ثم لا يبقى إلا أن نستنتج المبدأ العـام الذي ينبغي أن يقود كل سياسة ثقافية في أفريقيا الغربية الفرنسية ، كي ندرس بعض جوانبه في تطبيقه على مختلف درجات التعليم . وإني لأعلم أننا إذ نفعل ذلك ، نكون قد أهملنا مراعاة الفائدة الدراماتية .

لقد مضى عصر التضليل ، وآن أوان تعليق المشانق للمضلّلين !

قال لي سامباسين : « كبرت كلمةٌ تخرج من فيك : « الثقافة » .

وكان أن أجبته : « أنا لا أعتقد يا سيد سين أنها كلمة كبيرة بمقدار ما هي شيء كبير ، لأن سين أيضاً يحرث حقله ومنه يغذّي أسرته » .

سنحاول إذا شئتم أن نعرّف الكلمة من خلال ارتباطها بالتعليم والحضارة . ولنا أن نقول : ان الثقافة للتعليم كالفنان للعامل . إنها خيال ، وعقل ناشط ، لأنّ في الكلمة فكرة حيويّة خلاّقة . وإني لأقترح هذا التعريف : إنها ردّ فعل عرقي للإنسان على بيئته ، نزّاع إلى توازن ذهنيّ ومعنوي بين الإنسان وهذه البيئة . ومذ كانت البيئة قابلةً ، على الدوام ، للتغيّر ، شأنها شأن العرق ، ولا يمكن أبداً أن تظل جامدة ثابتة ، فان الثقافة تصبح جهداً متواصلاً ، دائماً نحو توازن كامل ، توازن إلهي . التعليم هو العامل (الشغّيل) وكأنه أداة الثقافة . وإنه ليتكوّن ، بالنسبة إلى الولد ، في تحصيل الخبرة المتراكمة لدى الأجيال الماضية ، في شكل مفاهيم ، وأفكار ، وطرائق ، وتقنيّات . وإن مجموع المفاهيم والتقنيات لدى شعب ما ، في حقبة ما من تاريخه ، يكوّن حضارته . ويطلق هذا الاسم أيضاً على جملة الحضارات المتعاقبة في تاريخ شعب ما .

الثقافة تستخدم التعليم بقول مختصر ، وهو دراسة حضارات شعبٍ معين ،

لتحقيق مثله الأعلى . وإذا كانت مناهج التعليم في فرنسا ، تفرد مكاناً يتسع أكثر فأكثر لدراسة المدنيات الأجنبية ، ودراسة الوقائع الاقتصادية والاجتماعية على نحو أخص ، فلأنّ فكرتنا عن الإنسان تغيرت مع تنامي العلاقات الدولية ، والعلوم الاقتصادية والاجتماعية ، تنامياً عظيماً .

وسأقول إذن للذين يخاطبونني : « ما الذي سنفعله بالإنسان الأسود في الغد ، وعلى وجه الدقة بالغرب الافريقي ؟ »

أجاب دمبا أندياي :

ــ سيكون فرنسياً ؟

ــ هل حضرت الألعاب الاولمبية ، يا سيد أندياي ، في برلين ؟

ــ أأحضرها لتنقضّ عليّ الجموع وتمزّقني .. لقد قرأت ، على كل حال ، ما كتب عنها .

ــ أظن أن هتلر ما كان ليقدّرك بحيث تمزّقك الجموع . قل لي أي الميادين تفوّق بها الزنوج ؟

ــ في الركض (المسافات القصيرة) والمباريات التي تتطلّب مرونةً ، وخفّةً ، وضبط أعصاب .

ــ جيد جداً .

وتابع : « وقد فعلوا جيداً بذلك ، إذ امتنعوا عن خوض الميادين الأخرى ، ولو خاضوها لهزموا وسخر منهم الآخرون . »

ــ لا ! الأفضل أن تقول : إنهم لو خاضوا الميادين الأخرى في أميركا لتكلّفوا الانهزام . يجب أن لا يتنكر الإنسان لعبقريته ويرهقها بالإكراه ، وفي مجالات الروح والعقل ، على الأخص . أتعتقد أنّ في استطاعتنا أن نتغلّب على الاوروبيين في الرياضيات ، أو على أولئك الذين يؤكدون ، باستثناء

أفراد قلة ، أننا لسنا عرقاً يدرك المجرّدات ؟ « إرادة السفر لا تسمح لك بالسفر ، وإنما القدرة على السفر هي التي تسمح لك بالسفر . »

العرق واقع . ولا أعني صفاء العرق حين أقول ذلك . هناك فرق ليس هو بالدونية ولا بالتضادّ . وقد قال ده لافيني : « إنّا لنتذوّق عذوبةً خاصة في أن نكون مختلفين ومجتمعين في آنٍ واحد . » وإذا أنتم اعتبرتموني رجعياً ، أرفع صوتي عالياً بالاحتجاج ، وأقترح عليكم ، وأنا أميّز السياسة من الثقافة قائلاً : « لنعمل على جعل غرب افريقيا مواطناً فرنسياً من الناحية السياسية ، أما من الناحية الثقافية ؟... »

لقد قال لي محاورٌ آخر : « سنعطي هذا المواطن مهنة : سيكون فلاحاً ، عاملاً ، موظفاً » . وأنا أخشى أن يكون صديقي هذا قد جعل من الوسيلة غاية ... ما من أحدٍ يُخلق ليكون محامياً أو كنّاس بلدية ، فإن المهنة إنما تمارس ليكسب ممارسها قوته .

إذا كان بالامكان اعتبار « المهنة » هدفاً للتعليم ، فانها ليست ، في الواقع ، سوى عَرَضٍ له ، بمقدار ما ليست هي ، على الأقل ، وظيفة اجتماعية . ولا يمكن أن تكون الهدف الأخير للتعليم ، وللثقافة من طريق أولى . لماذا يدرس المهندس الأدب الإسباني مثلاً ، والمحافظ المقبل يمارس رياضة القضيب الحديدي الثابت ؟ ألم نشاهد طلاباً رسبوا في البكلوريا ، ثم لمعوا كأساتذة للأغريقية ؟ إن ذلك إنما حدث باسم مبدأ المساواة العلمية ، وهو ، كما تعلمون أحد مبادىء الثقافة .

قال لي سلمانغ فاي ، وهو من قرية مجاورة لقريتي : « سنجعل من الغرب الافريقي ، إنسان شرف » ، فأجبته :

— نبيلٌ شعور الشرف هذا . غير أني أحمل ذكرى خادم كان في بيتنا ألقى بنفسه مرة في النهر — وقد استنقذ لحسن الحظ ! — لأنّ رئيس الخدم

اتهمه ذات يوم بالكذب ، وكان ، وهو الخادم ، مطمئن الوجدان إلى أنه قال الحقيقة . ما الرأي في شعورٍ يحرم المجتمع من أفضل أعضائه ؟

لا يكفي إذن أن يكون إنساننا إنسان شرف ، وعليه أن يكون أيضاً ذا تهذيب ، وعقل منفتح ، وبقول مختصر ، رجلاً ممتلئاً بمعاني الرجولة الحقة . وها نحن نلتقي بذلك ، مع « الكالوس ـ كاغاتوس » لدى الأغريق و« فيربونوس » لدى اللاتين ، وهو ما عبّر عنه بلغتنا السنغالية وولوف انديياي بكلمتي « سامبا — لنغر » وكانت فرنسا القرن السابع عشر تصفه عادة بـ « الرجل الشريف » .

إذا أردتم أن نتدبر جيداً مثلنا الأعلى للإنسان في أفريقيا الغربية — وأنا شاعر بالجانب الإعتباطي من هذا التعريف — أو مفهومنا للسامبا لنغر ، فلا بد من لحاظ نقطتين : الأولى أن هذا المثل الأعلى يطابق شيئاً نوعياً ؛ حاسة الشرف ، أدباً من غير حذلقة ، عقلاً متحرراً أكثر مما هو عالم ، والثانية أن هذا المثل الأعلى أخذ ينصل ، يخرج على الزمن . ولقد كان مشوباً ببعض الإحتقار لما هو جديد أو طريف ، للإقتصاد والعلوم الدقيقة ، وأكتفي بالوقوف عند هذه الثغرات الثلاث ، وهي ثغرات تبدو يوماً عن يوم أخطر فأخطر ، فها نحن نرتبط مع قارت العالم الخمس ، بروابط أقوى من الأسلاك التي تشدنا إليها ، ومع فرنسا على نحو أوثق وأخص .

ذلك بأننا أصبحنا رهن مصير واحد ، وأن تلك القارات تنافسنا في الميادين الإقتصادية كما في الميادين السياسية ، بشكلٍ رهيب ، وأننا إذا أردنا أن نستمرّ في البقاء ، لا نملك أن نتهرّب من التكيف ، والإذعان لضروراته . لا بد لنا من تمثّل هذا العصر وهضمه ، فبيئتنا لم تعد غرب أفريقيا وحسب ، وإنما هي أيضاً فرنسية ، وهي دولية ، أو هي بقولٍ شامل أفرو — فرنسية .

نستطيع الآن وضع هذا المبدأ العام ، أن دراسة أفريقيا الغربية وفرنسا

يجب أن تؤلّف قطبي التعليم في أفريقيا الغربية الفرنسية ، وأن هذه « الثنائية العقلية » تنتظم جميع مراحل ذلك التعليم . وكلما تقدم راح قطب أفريقيا يفقد جاذبيته لحساب قطب فرنسا . المراد أن ننطلق من البيئة الزنجية ــ الأفريقية وحضاراتها التي يسبح الولد في فضائها . على أن هذا يحفظ ويعرف ويعبّر عن عناصر تلك بلغته الأساسية أولاً ، ثم بالفرنسية . ورويداً رويداً ، يأخذ في توسيع دائرة العالم من حوله ، حيث يخوض الحياة كرجل من بعد . وسيكون في حاجة ، مع عنصره ، إلى معرفةٍ أغنى وأدق بالفرنسية ، أي الثنائية العقلية تعني ثنائية لغوية ، وأن مبدأنا العام يتخذ عدة مظاهر في تطبيقه على مختلف درجات التعليم .

وإذا كان تعليم المرحلة الأولى ، أي التعليم الأولي الإبتدائي يرمي إلى غايةً ثقافية ، فإنه كما تدركون ، لن يكون موحّداً . سيتكيف مع المنطقة ، مع البيئة ، مع درجة تطور الشعب . وسيكون من الضروري إيداع المناهج بعض المرونة ، وكتب التدريس بعض الحرية ، كما يطلب إلى المعلمين أن يكونوا على جانب كبير من روح الإبتكار .

هاكم بعض الأمثلة التي نريد منها فقط إيضاح مبدئنا العام ، وتعريفنا الثقافة في الوقت نفسه : لقد جرّ التوجيه الأخير للتعليم في آفريقيا الغربية الفرنسية ــ وكان توجيهاً ثقافياً ــ إلى عددٍ من التجديدات ، منها إلغاء الكتب المدرسية الإبتدائية المستعملة في فرنسا ، وإضافة ساعات من الأشغال اليدوية والزراعية ، مع نشوء « المدرسة الريفية الشعبية » . وكان من الطبيعيّ أن يُفضي هذا التجديد أيضاً إلى إدخال الثنائية اللغوية . وأودّ أن أحملكم على التفكير مليّاً في هذه التدابير ، وستجدون أنها مما لا يمكن تطبيقه بشكلٍ موحّد .

كثيرون هم الذين لا يرون في الثنائية اللغوية سوى فائدة نظرية ، ويرفضونها لأسباب عملية ، معترضين أن التعليم العام يُمنى بالسوء على يدها ، وتعليم

الفرنسية خاصّة . وآخرون من ذوي الفكر النير يرون العكس تماماً . وهؤلاء يجدون أن ثمة اعتبارات عملية تقف إلى جانب الثنائية اللغوية وتقاتل لنصرتها بوصفها مبدأ الثقافة . إن على الولد الأسود ، في مستهل دراساته أن يجمّع جهوده حول ثلاث نقاط : أن يتعلّم القراءة ، والفرنسية ، ويحصل بعض المعلومات التطبيقية في العلوم . وهذا التجميع إنما يعني التشتيت . والتعليم بلغة الأم ، التعليم الإقليمي يتدارك مساوىء النظام ، أذ يؤخذ التلميذ وهو في الخامسة من سنيه بدلاً من الثامنة وحتى العاشرة . وفي خلال سنة أو اثنتين أو ثلاث يُلَقّنُ بلغته مبادىء الجغرافية ، والتاريخ ، والعلـوم ، والأخلاق الوطنية . وفي السادسة أو الثامنة يقترب الولد من دروسه الإبتدائية اقتراباً أجدى وأحفل بالثمر ، إذ تكون روحه قد اشبعت بمثلنا الأعلى القديم المتجدد ، وأصبح ذهنه مرناً ، وحافلا بعديد المعلومات . وسيكفيه حينذاك خمس سنين أو ست لينهي دروسه ، شرط أن لا تكثر الشعب والصفوف على نحو ما يجري في المدن حيث يضطر التلميذ إلى قضاء سبع سنوات أو ثمان وأكثر لتحصيل شهادته الإبتدائية .

لم أغيّر الزاوية التي أنظر منها . فإن مدة التعليم المحلي (الاقليمي) وشكله لن يكونا شيئاً واحداً في كل مكان . ربما أمكن حذفه في بعض المدن أو بعض الأحياء حيث يتكلم الولد الأسود الفرنسية في أسرته ، بيد أن هذا لا يفيد أن للتلميذ الأسود نفعاً ثقافياً في أن يجهل لغته الأم ، فنحن أبعد ما نكون عن تقرير ذلك ، كما سنرى .

ان ساعات الأشغال اليدوية والزراعية في مدارس القرية ، والمدارس الاقليمية ، تشتّت الذهن أيضاً أكثر فأكثر . لقد كان الناس عندنا يتساءلون ما إذا كانت « مدينا » تعني مدينة أم ضاحية ، وما إذا كان الفلاح الأسود يحسن الحراثة . وكان من الأفضل أن يتساءلوا ما إذا كان الفلاح الأسود فلاحاً ، وكان ساكن المدينة يتمتع بعقل مدني ومهنته .

وليس ما يعنينا أن ننشيء مزارعين نموذجيين ، ولا عمالاً أكفاء ، فان تعلّم المهنة يأتي فضلاً زائداً مع غيره من الأفضال . والمراد أن تقود الزراعة إلى الثقافة ، وأن يكون هذا هو شأن المهن أيضاً ، كما أن القصد انبثاق مفهوم كيانيّ شاملٍ للثقافة ، وتكوين الطبع . فالأخلاق ، وهي التي لا يجوز الخلط بينها وبين نزعة التطهر الانكلو - سكسونية ، وأخلاقية البورجوازية الصغيرة ، تنحدر باستمرار لدى « المتطورين » والسبب في انحدارها يكمن في هجران تقاليد آبائنا الأخلاقية . والأخطر من ذلك هو أن تطوّر الاعراف الأخلاقية سبق تطوّر العقول ، وهذا لم يستدعِ ذاك ، ولا بعث عليه . هذا ، بينما الأعمال التي كانت توصف قديماً بأنها خسيسة والتي تزوّد اليوم ، أكثرية الناس بمعنى كرامتهم ، تنمّي عدا البراعة اليدوية ، السيطرة على النفس ، وذوق الجهد الدائب المتصل ، وحتى التوفير ، لأن للتلامذة معوناتهم المدرسية المتبادلة التي يتعلمون طرائق إدارتها .

أأتحدّث اليكم عن الأشغال الزراعية ، عن هذا المعنى الصوفي للأرض الذي كان قائماً في أذهان فلاحينا وقلوبهم ؟ أأنهي إلى علمكم أن أتقى الناس وأقواهم إنما هم أولئك الذين لا يزال معنى الأرض لديهم أقوى المعاني ؟

إني لأعرف ضآلة النجاح التي تمنى بها هذه الأشغال في المدن ، وليست هذه الكراهية للبورجوازية الصغيرة مما يثير دهشتي ، فهي طبيعية كما أنها شاملة ، وليس في ذلك أذى كبير من وجهة نظرنا الثقافية . إن للتربية البدنية ، والرياضيات ، والكشفية ذات النتائج الأخلاقية التي تفضي اليها الأشغال اليدوية . ثم إن رياضة الفرقة تنمي شعور التنافس وحسّ التضامن ، وروح التضحية للمجموع ، مجموع الفرقة .

ولن أسهب في الحديث عن الكتب المدرسية . لن أقف طويلاً لأبيّن أنها يجب أن تلبي مبدأ الثنائية العقلية ، كما تلبي مقتضيات البيئات المختلفة . سيكون من السهل إقامة الدليل — ومعلمو القرية أقاموه لي — على أنّ كتيّب « مامادو

وبينيتا » للصغار ، يجترح العجائب في تعليم أهـــالي الغابات ، ولكنه غير موضوع لتلامذة دكار ، فهو لا يتحدث اليهم عن مئات الأشياء التي يعرفها أبناء المدينة في حياتهم اليوميّة . وأنا إنما أحلم بكتاب مدرسي لكل مدرسة ، وحتى لكل تلميذ ، وأنا أفكر بكتاب « تيليماك » . واني لأترقّب — ولا أحلم بعد — بكتيب « مامادو وبينيتا » للمواطن من أي بلدٍ وأي إقليم . وهذا الكتاب للصفوف الوسطى يجمع بين دفتيه أجمل الصفحات التي كتبها مستعمرون من بيضٍ وسود ، وفرنسيين ، وفيه يكمل بعضهم البعض الآخر ، ويلقي بعضهم النور على بعض .

وهنا ، سيكون لي أن أميّز مستوى الثقافة من مستوى التعلّم ، فذاك يكون ذا درجةٍ ما من الفتوّة والفطنة اللتين تسمحان للتلميذ أن يحكم على الحوادث والرجال بوضوحٍ ، كما تجعلانه في الوقت نفسه على انسجام مع بيئته المحلية . أما مستوى التعلّم فسيكون كميةً من المعارف مصادَقٍ عليها بشهادة . والمثل الأعلى أن يظلّ المستوى الثقافي يتنامى بلا انقطاع من غير أن ينحطّ مستوى التعليم . ومن الطبيعي أن يكون هذا أرفع في المدينة مما هو في الريف . ولا أهمية لذلك . إن تلامذة قريتي يصبحون ، إذ يدخلون الصفوف التكميلية (الابتدائي العالي) ، أو الكلية (الليسه) ذوي عقول متحررة تمكنهم من التكيّف السريع . المهمّ إنما هو تساوي المستوى الثقافي .

كنت دوماً أشعر بالضيق إزاء التعليم الابتدائي العالي ، فأنا أحمل عنه هذه الفكرة ، وهي أنه ضرب من العلم النغل ، وأنه ينطوي على تناقض حتى في تسميته نفسها . وكان الادّعاء في شأنه حتى هذه السنة ، أنه يُعدّ للمهنة ، ويقدّم تعليماً خالصاً من كل شائبة نفعية ، على السواء . وقد أَضرّ الواحد من هذين بالآخر . ولذلك ، جاء الإصلاح الأخير للتعليم ، وقد أريد دمج التعليم الابتدائي العالي بالثانوي ، وجعل الأولوية للثقافة . وإنه ليدهشني أن يكون هذا الوقت قد اختير لإدخال التعليم الابتدائي العالي في شكله العتيق

المهترىء المتناقض ، في كلية دكار . ولقد قيل لي : إن ذلك جرى تلبية لطلب أبناء جيلي ، وليس هذا في نظري سبباً معقولاً يحملني على تسديد مسلكهم ورؤية الصواب جانبهم .

إن التظاهر في مكان آخر من افريقيا الفرنسية الغربية ، أن للتعليم الابتدائي العالي غايةً مهنية ، أكثر منطقاً مما هو هنا (في السنغال) . والحقيقة — وما هي بمفارقة — أن للمدارس الابتدائية العالية غاية قريبة هي الإعداد الثقافي الضروري لدخول مدرسةٍ اتحادية . وهذا الإعداد هو ما نجده في بونتي ، في السنة الأولى حيث يتجاور معلمو المستقبل مع أطباء المستقبل ، وإداريي المستقبل .

كيف لنا أن ننكر ، من جهة ثانية ، الدور الثقافي لِدُور الصناعة اليدوية (الأرتيزانا) ؟ السعي هنا لا يهدف إلى تكوين عمال ينفّذون خطة ، بل إلى صنّاع ملهمين ، يستلهمون تقنيّات السود القديمة مع إخصابها بدراسة التقنيّات الأوربية .

أنا لا أحفظ من « المدارس المهنية » ، سوى تلك الّتي تقدّم فائدةً ثقافية : مدارس ابتدائية عالية ، دور معلمين ، دور صناعة يدوية ؛ فإذا نحن رجعنا إلى مبدئنا الأول ، وجب على التعليم العام في هذه المدارس ، أن يحقق توازناً متناغماً ، لا « تسوية » بين التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي ، فكثير من التلامذة يُسمون معلمين ، وحتّى الآخرون يغدون ولهم دور تربويّ ، ويتحوّلون إلى قدوة . وميزتهم الأولى أن يكونوا أفريقيين عن طريق معرفتهم بأفريقيا ، واتجاه أفريقيا على الأخص . وقد ظهر من كلامي أن تلك الميزة لا تنقصهم بيد أني أُشدّد على أن تحصيلها يظلّ في المنزلة الأولى من الأهمية ، وكذلك مراس لغةٍ وطنيةٍ أصيلة ، وهذا يستتبع تلك أو ينبثق منها .

ولكن المعرفة لا تكفي . على المربي أن يحكم ، ولكي يحكم عليه أن يقارن . وهذا يكفي لتطلّب تعليم أكثر تعميقاً للتاريخ والآداب الفرنسية . كان أن

حدث ردّ فعل ضدّ عبارة « أجدادنا الغاليون » والحس السليم يقتضي ذلك . غير أنّ من شأن كل رد فعل أن يكون مندفعاً بلا عنان . ولربما آن الأوان لرد ردّ الفعل . وهذا من شأن التربية ، فلن نتلهّى بعد بـ« آنية سواسون » ولا بضربات نابليون العسكرية الكبرى . سيتناول الشرح التاريخي كيف أنّ شعباً انطلق من أجداده الغاليين وظلمات غاباتهم ، وارتفع رويداً رويداً ، عبر السقطات والتعييثات[1]، نحو النور والحرية . كيف لنا أن نُنْسيه الإنسية الاستعمارية التي تمثلها مآتي رجل مثل فيدرب ، وروح آخر مثل فان فوللنهوفن ، بطريقة أخرى ؟

يبدو أن تنظيم التعليم الثانوي في افريقيا الغربية الفرنسية يكتمل لحظة تناوله . لا أملك أن أنكر تفوّق المعلمين ، معلّميّ القدامى على الأقل ، ولا النتائج الطيّبة التي يحصلون عليها . ويضاف إلى ذلك ، الاعتراض بأن المناهج والنظم الفرنسية مطبقة . نعم ولا . يجب أن يفعلوا ، ولا يجب .

إن تعريفنا للثقافة ، وأنتم تذكرونه ، يقتضي أن يتوجه التلميذ حسب استعداداته ، وهذه الاستعدادات وراثية وعبارة بيئة في الوقت نفسه . لقد سمعت من يقول لأناسٍ عرفوا بالاعتدال أن « التوجيه » يمارس في كلياتنا ، ولكن بدون موجهين ودون صفوف توجيه ، وبصورة التأكيد ، خلال دقائق معدودات ، من غير استئنافٍ أو إعادة نظر ، إن لم يكن من وجهةٍ واحدة ، وهذا مما يدعو إلى التفكير . وهؤلاء الموجّهون لم يعاشروا التلميذ ولا دخلوا بواطن شؤونه ، ولا شاهدوا ردود الفعل لديه إزاء قصيدةٍ ، أو مشكلةٍ ، أو أداة ، وهم يحكمون على مواهبه لا بالنظر إلى ذوقه واستعداداته وميوله ، بل إلى سنّه ! وهكذا يساق الولد في طريق ليست له ، ففلان الذي وهب الشاعرية العذبة في الحقول ، يصبح مهندساً زراعياً يقضي نهاره في التثاؤب . ولكي أكون دقيقاً في بيان ما أحسّ ، أشعر أن أهالي أفريقيا الغربية الفرنسية

(١) عيّث : طلب الشيء باليد من غير أن يبصره، والتعييث تأدية لكلمة tâtonnement .

الأصليين ، موهوبون — إلا النزر النادر — في الآداب ، أكثر مما هم موهوبون في العلوم . وإني لأخشى أن لا يُسهّل الولوج إلى الفروع الأدبية تسهيلاً كافياً ، وإن كان من الواجب إحاطة ذوي الميول العلمية برعاية خاصة ، لندرتهم . أودّ أن لا يتحدّث أحد عن الوراثة الكلاسيكية ، فاللاتين والأغريق كانوا ، ذوي ذكاء متقد أكثر مما كانوا علماء . وما كان للشيخ كاتون أن يشعر بالغربة في بلاد السين ، وإني لأتساءل أحياناً ما إذا كان عوليس الجوّابة ، لم يترك بعض ذرّيّته ، خلال جَوَلانه ، في أرض الباوُل . يجب أن نتمنى أن يكون الموجّه ، إذا كان ثمة توجيه ، ناصحاً وأن يعطي نصائحه في أوقات الاضطراب وعلينا أن نتمنى أيضاً أن تكون أخطاء التحفيز مما يسهل إصلاحه وتداركه ، أي أن تكون الحال كما هي في فرنسا حيث الانتقاء يقود التوجيه ، وهـذا يقتضي الحرية . وذلك هو الإصلاح الديمقراطي والثقافي في أهدافه ، على طريقة جان زاي نصاً وروحاً .

ويأتي بعد التوجيه مبدأ الثنائية اللغوية . إن تعليم الثقافة العامة الذي تضطلع به الكلية (الليسه) لا ينفي معرفة المرء بلاده ، بل هو يستلزمها ويفترض حصولها . وذلك هو السبب في هيمنة الفرنسية على التعليم الثانوي . وهذا يعني في نظرنا نحن الأفارقة الفرنسيين تعليم الفرنسية مع لغة أصيلة محليّة تقوم مقام لغة حيّةٍ ثانية ، كما هي الحال في الهند الصينية ومدغشقر . ولكن أية لغة نختار من هذا الركام الضخم من اللغات واللهجات ؟ هناك لغات أُمّهات ولُغات ديناميّة ، ولغات كاسرة : المادنغ ، والهاوْسه ، واليوروبا ، والبُول ، والولوف . وأنا أفهم مع دراسة قواعد اللغة دراسة التاريخ ، والجغرافيا ، والتعبيرات الشعبية (الفولكلور) ، وحضارة الشعب الذي يتكلمها .

هناك في مثل هذا التعليم ، فائدة اجتماعية أولاً . والنخبة مدعوة لأن تكون قدوةً ووسيطاً . وأي رصيدٍ لها إذا هي انقطعت عن جذور عنصرها ؟ وما هي كفاءتها إذا كانت تجهل شعبها . ؟

والفائدة الثقافية بعدُ أكبر . فإن للمثقفين رسالةً هي أن يعيدوا الحياة إلى « القيم الزنجية » في حقيقتها وتفوّقها ، وأن يوقظوا شعبهم على السعي وراء القوت وطرائف الروح الأدبي ، هذا الروح وذلك السعي اللذان يميّزان النوع الإنساني من الحيوان ويجعلاننا « رجالاً » . والآداب على الأخص هي ذات الأثر الأكبر في تطويرنا . ليس ثمة حضارة من غير أدب يعبر عنها ويوضح القيم فيها ، كما هو شأن الصائغ مع جواهر تاجٍ من التيجان . ولا حضارة تتخطّى الفضول السلالي البسيط ، بغير أدبٍ مكتوب[1] . كيف لنا ، وتلك هي الحال ، أن نتصوّر أدباً محلياً أصيلاً لا يكتب بلغةٍ محليةٍ أصيلة ؟. يبدو لي أن أدباً زنجياً بلغة فرنسية أمرٌ ممكن . لقد أقامت هايتي الدليل على ذلك ، وهناك آداب زنجية أخرى نشأت وقد استعارت لغة أوربية،من زنجية أميركية، إلى زنجية إسبانية ، إلى زنجية برتغالية . وإني لأجد أن كل ما أفكر فيه حول هذا الموضوع ، سابق لأوانه ، فشعبنا لا يزال بمجموعه أدنى مستوى من أن يتذوق جمالات اللغة الفرنسية كلها ، ومن واجب كتّابنا أن يتميزوا فيها ويفيدوا من كل مواردها . ومثل هذا الأدب لا يملك أخيراً ، أن يعبّر عن الروح الزنجية كلياً . فإن ثمة طعماً ما ، ورائحة ما، ولهجة ما، ونبرةً زنجية ما لا تملك الأدوات الأوربية أن تعبر عنها . والذين اخترعوا « الجاز - هوت » ممن يستعملون البوق المسدود وغيره من الآلات الموسيقية الغريبة عن رجل الشارع ، أدركوا ذلك .

الثنائية اللغوية تتيح للزنجي الجديد ، أن يعبر على وجه الدقة ، عن كيانه كلياً ، وأنا إنما أتعمّد استعمال هذه الكلمات ، إذ ينبغي لهذا الكائن – الزنجي الجديد – أن يعود إلى الحياة بكرامته . فالمؤلفات العلميّة تكتب فيما تكتب ، بالفرنسية ، وتستخدم اللغة المحلية الأصيلة في الأنواع الأدبية التي تعبر عن عبقرية الشعب في أصوله العرقية : الشعر ، والمسرح ، والقصة[2] .

---

(١) رجعت عن هذا الحكم المقتضب ، منذ وضعته (١٩٦٣) . (المؤلف)

(٢) رجعت كذلك عن هذا الحكم (١٩٦٣) . (المؤلف)

سيعترض المعترضون أن اللغات المحلية ليست من الغنى ولا من الجمال بالمنزلة الكافية . وجوابي أن لا أهمية لذلك ، فهي لا تتطلّب أكثر من أن تتناولها أيدٍ ماهرة ، ويثبّتها كتّابٌ ذو قريحة وبراعة ، فالملغاشية (لغة مدغشقر) اليوم لغة أدبية ، ولم يكن لها بالأمس قواعد مكتوبة . وإن كتّاباً أمثال لورانس دنبار ، وكلود ماك كاي ، ولانغستون هيوغز ، واسترلنغ براون جعلوا من اللهجة الزنجية - الأميركية ، من تمتمات عبيد اقتلعوا من جذورهم ، إحدى بدائع الجمال الفني والأدبي . ولكني أعود بكم إلى سَحَرَة قصور الأمراء الأقدمين ، أو إلى فلاحي كابور وحدهم ، فقد كنت على الدوام ، أعجب بلغتهم ، ومقدرتهم التي جعلتهم يقيمون عملاً أدبياً من المساومة على جوزة كولا ، وهو عملٌ خليطٌ من الدقة والسخرية . ولي أن أقول أيضاً إن اللغويين يحبّون تعداد اللغات لما فيها من خاصة الاختراع الكلامي العجيبة ، كالماندنغ . لا ! ليست هي أدوات التعبير التي تعوزنا ، وأنا إنما أنتظر القرائح التي تستثمر تلك الأدوات ، وحسب .

أسمع هناك تهامساً ، فإن العديد من أبناء جيلي يودّون أن أتخذ موقفاً من بعض التفصيلات العملية : حدّ السنّ مثلاً أو منح التعليم . ولم يكن هذا هو موضوعي ، ولا هو بالجوهريّ في الأمر . أكرر مرة ثانية أني أردت أن أقوم معكم بمحاولةٍ لتمييز عناصر المشكلة ، وكيف تتوالى بالترتيب . والاتفاق على التفصيلات والتطبيق يتم دون صعوبة ... إنّ آرائي قابلةٌ للجدل . أنا أعرف ذلك . وفي كل مرة أدرس بها تطبيق مبادئنا على التعليم ، أتوغل في مغامرة أتخطى بها هذه المبادىء . ستناقشونها وأنتم مصيبون في ذلك . وإني لأكون سعيداً إذا كنت قد استطعت أن أثير في نفوسكم بعض الشك — في نفوس الشباب منكم خاصة — وأن أعطيكم فكرة عن أنّ المشكلة ليست بسيطة ، وأنها لا تتطلّب حلا عنيفاً ، بل تقتضي إمعان الفكر فيها بهدوء وأناةٍ ووضوح.

ربما كان الشك وحده لا يكفيكم ، وبودكم أن تحصلوا على شيء إيجابي ،

على زاد تأخذونه معكم حسب عادتنا في « اليوبل » . أريد قبل كل شيء ، أن أتخذ من نفسي مثلاً ، لأنهي حديثي ولأقدم دليلاً معاكساً يمكن التفكير في استخدامه ضدي ، وهو مثل المستعمرات القديمة ، حيث كانت تزدهر الشهادات ، وكان التعليم نسخةً طبق الأصل عن التعليم في فرنسا .

سأتوجه بهذا السؤال إلى أبناء جزر الأنتيل الفرنسية من أبناء جيلي : ما الذي يقوله طبيب في مستشفيات باريس مثل أليكير ، وسيزير تلميذ دار المعلمين العليا ، ومونـّيرو الكاتب الناقد ، وسوفانور أستاذ الطبيعيات ؟ هؤلاء يقولون : إنّ في الأنتيل الفرنسية كثيراً من الشهادات وقليلاً من الثقافة ، رغم الذكاء الوافر لدى أبنائها ، وأنّ لديهم أدباً غزيراً ، ولكن أدبهم صورة منعكسة ، أو نسخة شائهة عن الأدب الحالي في فرنسا ، وإنهم يجدون أنفسهم مكرهين ، حين يلجون مجموعة الشعوب « حيث يتم اللقاء للأخذ والعطاء » كما يعبر سيزير ، على القدوم بأيدٍ فارغة . والخطأ في ذلك إنما هو خطأ التعليم الذي يتلقونه ، فهذا لا يعلمهم التاريخ ولا حضارات أجدادهم الأفارقة .

هاكم هذه القصيدة من نظم ليون داماس ، الشاعر الغيـّاني الذي يعرّف نفسه أنه « شاعر زنجي » ، وهو يغني ، على إيقاع « تامْ ـ تامْ » وقد استردّه بالغريزة ، عـُرْيَهُ الروحي ، بعدما جـُرّد من كل شيء ، في أعقاب المنفى :

قدموا هذا المساء ،
لحظة كان التام ـ التام
يدحرج
من نغم
إلى
نغم .
سـُعـَارَ الأعين ،
سعارَ الأيدي

سعار الأقدام
أقدام التمثال
ومنذ ذلك الحين
كثيرون هم الأعزاء
علَيّ ، علَيّ ، علَيّ
الذين ماتوا
ومنذ ذلك المساء الذي كان
التام . التام
يدحرج فيه . من نغم إلى نغم .
سُعار العيون ، وسعار الأيدي
وسُعار الأقدام ،
أقدام التمثال .

لقد تأخرت عليكم وأنتم تريدون أن تذهبوا . دعوني أشيعكم بعيداً عن الطريق . خذوا هذا الزاد معكم ، أيها الرفاق من الشبان والشابات : أدعوكم إلى التأمل في هذه العبارة التي قالها الزنجي الاميركي والشاعر الروائي ، كلود ماركاي المولود في الجامايك ، على لسان راي أحد أبطال قصته بانجو :

« أن نغوص حتى نبلغ جذور عرقنا ، ونبني على أساسنا العميق ، لا يعني ذلك أن نعود إلى حالة الهمجية ؛ وإنما تلك هي الثقافة بالذات . »

— محاضرة القيت في غرفة تجارة دكار في حلقة الشبيبة فرانس ـ سنغال في ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٧ —

مآسي الإنسان الأسود

ليست الحكمة في العقل ، وإنما هي في الحبّ

(اندريه جيد ، « الأغذية الجديدة »)

إنهم (الزنوج) يقطعون نغم الحياة الميكانيكي الرتيب في أميركا ، وعلينا أن نعترف لهم بهذا الجميل . لقد نسينا في هذه الديار أن ثمة أناساً يستطيعون أن يعيشوا من غير رصيد في البنك وبدون مغطس في حمّام البيت .

(بول موران ، نيويورك)

أمّا أن يكون الزنجي حاضراً في إعداد العالم الجديد ، فهذا ما لا ينهض عليه البرهان في العساكر الافريقية التي تخوض المعركة في أوربا ، وإنما هذه تثبت فقط أن الزنجي يشارك في تقويض النظام العتيق البالي . الزنجي يثبت وجوده الراهن في بضعة مؤلفات فريدة وضعها كتّاب وفنّانون معاصرون ، وفي بضعة أعمال غيرها ، أقل من تلك نضجاً وكمالاً في أكبر احتمال ، ولكنها مؤثرة ، ومثيرة قام بها أفراد سود . وليس هذا الضرب من الحضور وحده الذي أريد أن أتحدّث هنا عنه ، وإنما عن جميع المآتي المضمرة ، الكامنة ، على الأخص ، التي يتيح لنا درس الإنسان الأسود ، أن نتبيّنها .

ألسؤال الذي يرد هو : هل هنالك زنوج ، خالصو الزنوجة ، زنوج سود ؟ العلم يقول : لا . أنا أعلم أن ثمة ، وأنه كان ثمة ثقافة زنجية تشتمل مساحتها على بلاد السودان ، وغينيا ، والكونغو بمعناه الأوسع . لننصت إلى عالم السلالات الألماني : « إن للسودان إذن ذاته ، حضارة أصيلةً ومزدهرة . وإن ريادة أفريقيا الاستوائية لم تعثّر فيها إلا على حضارات قديمة ، ناشطة وفتيّة ، وفي كل مكان تكون به الغلبة للعرب، لم يستطع الدم الحاميّ أو الحضارة الأوربية أن ينزعوا الغبار عن أجنحة السود، تلك الأجنحة التي كانت قديماً جدّ جميلة. ذلك واقعٌ ، قائمٌ في كل مكان[1] . « ثقافة[2] واحدة وحدويّة : » أنا لا أعرف أي شعب من شعوب الشمال يستطيع أن يضاهي هؤلاء البدائيين في وحدة حضارتهم . » والحضارة ، كما أفهمها على وجه الدقة : ثقافة ولدت من تفاعل العرق والبيئة والتقاليد ، وهي التي هاجرت إلى أميركا ، واحتفظت بطابعها سليماً ، في عناصرها العضلية ، على الأقل. لقد توارت الحضارة منسيّة ،

(١) Leo Frobenius : Histoire de la civilisation africaine(Gallimard) .

(٢) أنا أفهم بكلمة « ثقافة » روح الحضارة ، وبكلمة « حضارة » أعمال الثقافة ومنجزاتها. أنا استعمل إذن هاتين الكلمتين لمعنيين جد مختلفين عما يفهمه منها دانيل روبس (ما يموت وما يولد) ولكن ليس هناك في قرارة الأشياء سوء اختلاف في الألفاظ . (المؤلف)

وشعلة الثقافة لم تنطفىء . وكان من شأن الرق بالضبط ، أن حلّ محل البيئة، وتدارك الأثر الانحلالي للاختلاط العرقي .

تلك هي الثقافة التي أودّ التحدث عنها ، لا كعالم بالسلالات ، بل إن اهتمامي ينصبّ على ازدهاراتها الإنسانية ، أكثر مما ينصرف إلى أغصانها الجديدة المؤبّرة (المطعّمة) على الجذع البشريّ القديم . ومن المفهوم ما يمكن أن يكون الأمر من ناحية حزبية . فان عيوب السود معروفة لدرجة لا أحتاج معها إلى إعادة وترديد ، ولكن العيب الذي لا سبيل إلى التجاوز عنه منها، إنما هو امتناع الزنوج عن تمثيل (هضم) شخصيتهم العميقة. لا أقول انهم لا يتركون غيرهم يتمثل أسلوبهم ، فالعناصر التي تثير اهتمامي هنا ، والتي وحدها شائقة ، تلك العناصر الخصبة التي تأتي بها ثقافتهم ، عناصر الطراز الزنجي . وهذا يدوم ما دامت الروح الزنجية ، حيّاً ، ناشطاً ، وهل أقول إنه أبديّ ؟

سندرس الروح الزنجيّ أولاً ، بإيجاز . ثم إدراكه للعالم الذي تتحدّر منه الحياة الدينية ، والحياة الاجتماعية ، والفنون أخيراً التي هي تعبير عن هذا وتلك . ثم لا يبقى لديّ إلا أن أجمع الكنوز التي اكشفها ، في اضمامة ، خلال هذه الدراسة ، بروح انسانية .

كثيرة هي المؤلفات التي تناولت « الروح الزنجية » . وقد ظلّت غابة مفعمة بالأسرار تحت أجنحة الطائرات . وكان الأب ليبرمان يقول لمبشريه : « كونوا زنوجاً مع الزنوج كي نكسبهم ليسوع المسيح » . وهذا يعني أنّ المفهوم العقلاني والشروح الآلية ـ الماديّة لا تفسر شيئاً ، وهنا على نحو أوضح، من أي مكان آخر . وكثيرون هم الذين يضلّون عن الحقيقة ، إذ يحاولون تفهم الروح الزنجية من خلال الأحاسيس الأنثوية ، وانه لضرب من الخبط والخلط العقليين أن نفسر الزنجي بنفعيته حين يكون عملياً ، وبماديته حين يكون شهوانياً.

أنريد فهم روحه ؟ فلنجعل حساسيتنا كحساسيته من غير إطالة للحديث عن الذات والموضوع ، وغير خيال بالمعنى الشائع ، وغير ذات موضوع .

ولتبق الألوان الصارخة كما هي دون أن تخسر شيئاً من صراخها ، ودون أن تخسر الأشكال شيئاً من أوزانها وحجمها ، والأنغام شيئاً من تفرّدها الشهواني.. إن الجسد الزنجي والروح الزنجيّ مما يمكن النفاذ اليه حتّى الإيقاعات الدفينة الّتي لا تدرك في الظاهر وتستعصي على إغراءات العالم جميعها ، باستثناء إغراءات الكون وحدها . وللزنجي أيضاً حساسية أخلاقية . وإنه لواقع ملحوظ غالباً أن الزنجي يتأثر بالكلمات والأفكار ، كما يتأثر على نحو فريد بالمزايا الحسية – أأقول الشهوانية ؟ – للكلام ، وبالمزايا الروحية ، لا الذهنية ، للأفكار . القول الجيد يفتنه كما يفتنه في الوقت نفسه المفكر الشيوعي ، والبطل والقديس والزنوج يقولون في وصف الأب داهن : « كان صوته يحرك الناس[1] . » مما يشير إلى أن الزنجي سهل التمثيل،عندما يكون هو الذي يمثل . ومن هنا ، ترد حماسة اللاتين إجمالاً ، والمبشرين منهم خاصة ، إزاء تلك السهولة الّتي يظنونها في « هداية » الزنوج أو « تمدينهم » . ومن هنا يرد غالباً انخذالهم المفاجيء إزاء اكتشاف غير معقول يقعون عليه في سلوك زنجيّ نموذجي خالص فقد اعترف الأب داهن نفسه على فراش الموت ، بعد أكثر من خمسين سنة قضاها في أفريقيا : « نحن لا نعرفهم ... ولا نستطيع أن نعرفهم » .

ولهم حساسية انفعالية . الانفعال زنجي كما أن العقل هليني . أهي ماء يتموّج مع كل نفس ؟ أهي « روح هواء طلق[2] » تذروها الرياح ، وغالباً ما تسقط ثمرتها قبل أن تنضج ؟ نعم ، إنها كذلك بمعنى من المعاني . وزنجي اليوم أغنى بالمواهب منه بالأعمال . ولكن الشجرة تغرز جذورها بعيداً في الأرض ، والنهر يجري عميقاً ، وهو يجرف قطعاً ثمينة من التراب . والشاعر الأفرو-أميركي يتغنى قائلاً[3] :

---

(١) Marcel sauvage : Les secrets de l'Afrique noire .
(٢) Georges Hardy : l'Art nègre
(٣) Langston Hughes : The negro speaks of Rivers .

عرفت أنهاراً
أنهاراً قديمة ، مظلمة
وروحي أصبحت عميقة كالأنهار العميقة .

ولنغلق الهلالين . إن طبيعة انفعال الزنجي ذاتها ، وحساسيته ، تفسر الموقف الذي يتخذه من الشيء الذي يدركه بمثل ذلك العنف الجوهري . إنه استسلام بذات ، أيا كان حظ العمل من القوة ضئيلاً ، وكنت أوشك أن أقول أيـّاً كان حظ شخصية الشيء . إنه موقف إيقاعي . ولنحفظ هذا النعت .

وكان من شأن هذه الانفعالية في طبيعة الزنجي أن جعلته يدرك الأشياء بسماتها الشكليـّة وجوهرها معاً . وكثيراً ما يتكلم الناس عن واقعية العاطفيين ، عن نقص الخيال لديهم . إنها الواقعية الزنجية التي تصير ، في المواقف اللاإنسانية ، رد فعل الإنساني ، لتنتهي إلى السخرية . ولي أن أقول ، في هذه اللحظة ، أن الزنجي لا يملك أن يتصور الشيء مختلفاً عنه في جوهره . إنه ليعيره روح إنسان ، وإرادته ، وحساسيته ، ولكنها روح إنسان زنجي . وقد لوحظ أنها ليست عقيدة « أنسنة للإلاه » على وجه الدقة ، فالجن مثلاً ليس لهم دوماً وجه بشري . وهناك من يتحدّث عن « روحانية » الزنوج ، وأنا أقول نفسياتهم ، وهذه ليست بالضرورة كما سترى ، اعتبار النفس الزنجية مركز العالم .

وهكذا فإن الطبيعة كلها تنتعش بحضور إنساني . إنها تتأنسن بالمعنى الأصيل والراهن للكلمة ، فليست الحيوانات وظواهر الطبيعة تتحوّل إلى بشر وحسب ، وإنما ينتظم هذا التحوّل الشجر والحصى ، بنسبة ما يشمل المطر والريح والرعد والجبل والنهر . وهي تصبح كائنات بشريـّة وتحتفظ بخصائصها الطبيعية الأصيلة ، كأدوات وعلامات لروحها الشخصية ، وتلك هي السمة الأكثر عمقاً ، السمة الأبدية للروح الزنجية . إنها هي التي عرفت كيف تقاوم ، في أميركا ، جميع محنِ العبودية الاقتصادية و « التحرر المعنوي » ...

تلك هي الروح الزنجية ، على قدر ما تستطيع أن تخضع للتعريف . أما أن تكون ابنة البيئة ، فهذا ما أرضاه ، وأرضى أيضاً أن تكون أفريقيا « القارة السوداء » . ذلك بأن تأثير البيئة هنا ، ملموس على نحو خاص ، فإن من هذا النور الصافي البدائي ، المفرق في بدائيته وصفائه ، الطافر ملء الأدغال والغابات ولدت الحضارات ، فكان هو نفسه عارياً ومُعَرّياً ، يعلي من قيمة الجوهري شأنه شأن جوهر الأشياء . وإني لأرضى أن تكون الحضارات قد نشأت أيضاً من هذا المناخ الذي يدفع على العنف والخنوع في آن واحد ، إذا كان ذلك يفسر الواقع على نحو أوضح . وكيف دار الأمر ، فإن هذه الروح تفسر بدورها ، الدين والمجتمع .

قيل ، ولا يزال يكرر ما قيل : إن الزنجي لم يأت بجديد في الدين . لا عقيدة ولا أخلاق . كل ما هنالك ضربٌ من « التديّن » ! ولكن ... أليس الجوهريّ كامناً في هذه الكلمة التي تلقى بازدراء ؟ وأود مع ذلك ، أن أُمحّص عقيدة الزنوج وأخلاقهم دون أن أحمل نفسي على الإيمان بهما .

وأول ما ألفت اليه النظر أن هذه التفرقات — بين الدين والأخلاق — غير واردة . « كونوا زنوجاً مع الزنوج » . إنهم لا يعرفون القسمة ، ولا الحساب حتى ولا التمييز .

« أؤمن بالله الأب الكليّ القدرة ، خالق السماوات والارض » . إن بداية الاعتقاد هذه ، مما لم يدهش قطّ زنجياً ، أيا كان ، منذ كان . الزنجيّ في واقع أمره ، موحّد منذ أبعد أبعاد الزمن ، وفي كل مكان . ليس ثمّة سوى إلهٍ واحد ، خلق كل شيء ، وله القدرة على كل شيء ، ومشيئته وحدها النافذة . وجميع القوى والمشيئات التي تعزى للجنّ والاجداد ليست سوى انبثاقات عن قدرة ومشيئة .

ولكن هذا الإله ، كما يقول لنا العارفون ، غامضٌ في صفاته ، ولا يهتمّ بالبشر ، والدليل على ذلك أنه لا يولي اهتمامه إلا لمن يعبده ويقدّم له القرابين .

والواقع أنه محبة ، وليس للبشر أن يتحاموا غضبه . إنه قوي وسعيد ، فهو لا يحتاج إلى طعام واغتسال . ولكنه ليس إلهاً من خشب ، أو ضرباً من « نُشارة » وإني لأذكر أن العجائز من جيل جدّتي كن يلجأن اليه في أوقات الشدّة ، إذ يلبسن ملابس الرجال بكل ما فيها من أبهة ، ويطلقن النار في الفضاء ، والأسهم نحو السماء ، وكن يوغلن في مسرحيتهن هذه حتى التلفظ بالأقوال النابية ... بالفرنسية . وكان الله — جلّ شأنه — يستجيب لأدعيتهن ، مغتبطاً ، بشوشاً .

العبادة كانت للجن والأجداد . ولنلاحظ مع موريس دو لافوس ، أكبر المستشرقين المتأفرقين في فرنسا — وأعني أشدّهم انتباهاً — أن عبادة الأجداد أقدم ، فهي إذن أعرق في الزنوجة ، وإنها لمنتشرة في أفريقيا السوداء عامة . والقرابين ليست شرطاً من شروط عَقْدٍ بين طرفين — « خذ وأعط » — ، ولا هي عمل سحريّ ذو غاية نفعيّة دقيقة الضبط كما هو الشأن في المجتمعات المغلقة السريّة ، فهذه متأخرة نسبياً في أصولها ، وأرى فيها من جانبي ، انحرافاً خرافيّاً جدّ بشريّ ، بدليل أن هذه الطقوس السحريّة تأخذ تناميها من المجتمعات الزنجية المنحلّة في أميركا . وإني لأرى غايةً مثلّثة لهذه القرابين : المشاركة في قوة الأرباح العليا التي ينمى اليها الأجداد ، والتواصل مع تلك الارواح حتى تحقيق ضرب من الاتحاد بها ، والرفق أخيراً،بالأجداد الأقدمين ومحبتهم . وذلك لأن الأموات ، أيةً كانت قوتهم ، ليسوا ذوي حياة ، ولا هم يستطيعون الحصول على هذه « الأغذية الأرضية » التي تجعل للحياة مذاقاً عذباً ، بالغ العذوبة .

لا ! ليس الخوف ولا الهموم الماديّة تستحوذ على دين الزنوج ، بل إنها غريبة عنه ، فالزنجي يشعر أيضاً ، بالقلق الإنساني . ولكنه هو « الحب » ، والمحبة التي هي حب ماثلٌ في عمل . فقد جاء في قول مأثور عند قبائل التوكولو : « إن الفلاّح إذ ينظر إلى الأفق البعيد ، وينتصب ، فانما هو يتطلّع إلى القرية.

وليست الرغبة في الأكل هي السبب في موقفه ذاك . إنه الماضي برمّته هـو الذي يجتذبه إلى تلك الجهة . » . وإن لدى الولد الذي يعمل لأبيه شعوراً مماثلاً ، وكذلك هي حال الرجل الذي يعمل من أجل قومه ، فان شعور التواصل العائلي يلتي ، فينتظم أبعاد الزمن ، إلى الوراء ، وفي العالم العلويّ ، حتى يبلغ أرواح الأجداد والجنّ ، وحتى ملكوت الله . هذا هو منطق الحب .

ومذ كان الأمر هكذا ، فما قيمة الأخلاق من غير عقوبات ؟ ولكن ثمة أخلاقاً ولها عقابها في هذه الدنيا ، وهو تنكر القوم وتوبيخ الضمير . وشعور الكرامة لدى السود معروف ، والأخلاق إنما تكون في أن لا نقطع الصلة بين الأحياء والاموات ، والارواح والله ، وأن نحافظ عليها بالمحبة . وكل من يقطع هذه الصلة الخفيّة يعرّض نفسه لعقوبة العزلة .

لنعد إلى كلمة « التدين » . إن ما جاء به الزنجي هو هذه المَلَكة التي يدرك بها ما فوق الطبيعي في الطبيعي ، هذا الحسّ بما هو متعالٍ والاستسلام الفعّال الذي يرافقه ، استسلام الحب . وذاك عنصر حي من عناصر شخصيته الأصيلة (الأثنيّة) يوازي في حياته مبدأ الروحانية . ودراسة الزنوجة الأميركية تمدنا بالدليل على صحة ذلك ، فإن الشعور الدينيّ لدى الشعراء « الراديكاليين » أنفسهم ، ينبجس فجأة ، ويصاعد إلى أعلى الذروات ، من أعماق زنوجتهم ..

ها نحن في صميم المشكلة الانسانية . والمراد أن نعرف « ما هي غاية الإنسان؟ » أهي أن عليه أن يجد حلها في نفسه وحده ، كما أراد له غيهنّو ، بعد ميشله وغوركي[1] ، أن يفعل ؟ أم أن الإنسان لا يكون حقيقة ، إنساناً إلا إذا هو تجاوز نفسه ليجد اكتماله خارج الاناء وحتى خارج الإنسان ؟ المراد ، كما يقول ماريتان ، بعد شيلر « أن ينطوي العالم في الإنسان » وأن « يتمدّد الانسان في العالم » . وهذا هو ما يلبّيه الزنجي بترنيج الله ، بإشراك الإنسان — دون أن يؤلّهه — في عالم ما فوق الطبيعة :

---

(١) Cf . Jeunesse de la France .

أيها الرب ، إني لأصنع آلهة سوداً أيضاً
ولي الجرأة حتى على إعطائك
قسمات قاتمة ويائسة [1] .

والشعراء الأفارقة الأميركيون يتوجّهون إلى المسيح في خطابهم ، باعتباره الإنسان ـ الله مفضلين هذه الطريقة على غيرها .

سنمضي الآن في استقراء الجانب الطبيعي من النظام الوحدويّ للعالم ، أعني المجتمع الزنجي .

ليست الأسرة لدى الزنوج ، شأنها لدى غيرهم ، هي الخلية الاجتماعية وحسب ، وإنما يتكون المجتمع أيضاً من حلقات متداخلة ، تتسع على نحو أكثر فأكثر ، وتتنامى طبقات بعضها فوق بعض ، متلاحم بعضها مع بعض ، ومتشكلة وفق نموذج الأسرة نفسها ، فالأسر التي تتكلم اللهجة نفسها وتشعر بأصل مشترك تؤلف قبيلة ، والقبائل التي تتكلم اللغة ذاتها ، وتقطن البلاد ذاتها يمكن أن تؤلف مملكة. ولعدة ممالك أخيراً ، أن تلج بدورها ، اتحاد دولٍ أو أمبراطورية . ومن هنا ، كانت أهمية دراسة الأسرة . وسنتبين فيها العناصر التي ينبغي لها الاستمرار في إخصاب الأسرة الزنجية فقط ، وتتيح لها التوافق مع الإنسانية الجديدة ، بإغنائها . والأمر ، كما أوضح وسترمان : « إذا وفق الافارقة إلى صونها سليمة (الأسرة) خلال فترة الانتقال ، وتطهيرها من عناصرها الفاسدة ، واستنقاذها من الانحلال ، فليس ثمة ما يدعو إلى القلق على مستقبلهم [2] »

وحدة الأسرة ، وحدة في الاقتصاد ما دام نتاج الأسرة مشتركاً ، غير مقسم . ووحدة في الأخلاق ، فإن غاية الأسرة الأخيرة إنجاب أولاد ، يتابعون إحياء التقليد ، وصيانة شرارة الحياة في أجسادهم وأرواحهم من الانطفاء ، بورعٍ وتقوى .

---

(1) Countee Cullen : Héritage.

(2) D. Westermann : Noirs et Blancs en Afrique .

إلا أنّ تلك الوحدة لا تتجاهل الأفراد ، وإن كانت تريدهم على الخضوع لوحدة المجموع ، فإنّ للمرأة كالأولاد ، إلى جانب الخير المشترك ، مالها الخاص . ولهم جميعاً أن يزيدوا فيه ويتصرفوا به ملء حريتهم . والأولاد يتلقّون تربية حرّة ، وإن ظلت صارمة في مستهلّ التدرّب والمراس العمليّ للحياة الجديدة ، وهم لا يتعرضون أبداً للضرب ، وهم في معاشرتهم لأقرانهم ولِداتهم ، يتدرّبون وحدهم على طريق الرجولة . والمرأة مساوية للرجل ، خلاف الشائع لدى الرأي العام . ولا يؤخذ رأي الخطيبة كما لا يؤخذ رأي الخاطب،ولكنهما يقبلان ما يملي عليهما ويعيشان في جوّ هذا القبول ، وذلك أهمّ من انطباع الاختيار[1] . والمرأة لا تشرى ، ولكن يُعوّض فقط على أسرتها . والدليل على ذلك أنها عندما تتعرّض لإهانةٍ من زوجها ، تنسحب إلى بيت أهلها ، وعليه أن يأتي ضارعاً اليها ، ويقدّم لها التعويض عما لحقها . تلك هي العادة ، عند قبائل السيرير على الأقل . وذلك بأن المرأة هي « الأم » ، مستودع الحياة وصائنتها وحارسة التقاليد . وقد شبهها بعض ذوي العقول السطحيّة بـ« دابّة الشغل » . والواقع أن مهمّة المرأة في توزيع الأعمال، ـفان هناك توزيعاً لا تصنيفاً للأعمال ـ غالباً ما تكون شاقّة،وعند ذاك تزداد تبعتها وكرامتها . والمرأة السوداء التي تحولت إلى « مواطنةٍ فرنسية » خسرت من كرامتها ومن حريتها ، وتلك هي الحقيقة أيةً كانت الغرابة التي تبدو عليها.

الأسرة ضمن هذه الحدود الضيقة ، ليست فئة مستقلة : إنها تسكن « مربع » الأسرة النسبي بمعنى « العشيرة » . والعشيرة هي الأسرة الزنجية ـ الأفريقية الحقيقية . وهي تشتمل على أفراد الذريّة المتحدّرين من جدٍّ واحد ، رجلاً كان أو امرأة . وهنا يظهر الجانب الوحدوي للأسرة ، علىً أفضل ما يظهر باعتبارها أساساً وصورة ممثلة سابقة للمجتمع الزنجيّ . وجدّ العشيرة هو الحلقة التي تصل الجانب الإلهي بالجانب الإنساني ، وهو نفسه كائن غير عادي ،

---

(١) C f. Denis de Rougemont : L'amour et l'Occident.

وضربٌ من نصف إله . وكان من صفته هذه ، أن جعلته يقدح شرارة حياته ويستمرّ في صونها ، وإذكائها في شعلةٍ أبدية . إنه هو الذي حصل على ريع قسمٍ من الأرض لذريته ، وأصبح هذا الريع مالاً مشتركاً ، لا سبيل إلى تحويره . ورئيس الأسرة ، وهو أول المواليد في الأحياء ، يؤلف بدوره الحلقة التي تربط هؤلاء بالأجداد الأموات . إنه وهو القريب منهم والمشارك في علمهم وقوتهم ، يكلّمهم تكليم الأليف العارف ، فهو أكثر من رئيس أي كاهن ، ووسيط . إنه الكاهن ، لأن أحداً في هذه « العشيرة » ، وعلى الأخص من هؤلاء الذين يتمتعون بسلطةٍ ما ، لا يملك أن يتصرّف لنفسه وحده . الكلّ يحسن لبعضه البعض ، وكل حياة تعمق وتتكاثر ضمن هذا التواصل العائلي بين الأموات والأحياء .

وانه ليمكن التقاط الحلّ الذي قدّمه الزنجي للمشكلات الاجتماعية والسياسية عن طريق القبيلة ، بشكل أوضح مما يلتقط على مستوى المملكة . وهو حلّ لبى سلفاً تلك « الوحدة الجمعية » التي تظل مثل الإنسانيين الأعلى في هذه الأيام ، مثل هؤلاء الذين لا تكون النزعة الإنسانية لديهم ضرباً من اللهو الباطل الذي يلهو به « الرجل الآدمي » على الأقل ...

إن قضايا « الملكية » و « العمل » تقوم في الأساس من كل مشكلة اجتماعية. والمراد على وجه الدقة ، أن يعيش كل إنسان من عمله ، هذا العمل الذي يعتبر مصدراً جوهرياً للملكية. المراد على نحو أخص ، أن يجد الإنسان ، في عمله ، إذ يتحرّر به ويتحرّر منه ، ينبوع فرح ومصدر كرامة؛ وعلى العمل أن يفتح أمامنا الطريق إلى اكتشاف ثرواتنا الروحية وزيادة ثمراتها ، لا أن يجعلنا غرباء عن أنفسنا ، أو يبعدنا عنها .

ورذيلة المجتمع الرأسمالي ليست في الملكية وهي الشرط الضروريّ لتنامي الشخص . وإنما الرذيلة في هذا الواقع ، وهو أن الملكية لا تقوم في جوهرها على أساسٍ من العمل . وواقع الحال في المجتمع الزنجي أنّ « الشغل أو العمل

المنتج بتعبير أضبط ، يعتبر المصدر الأوحد للملكية ولكنه لا يخوّل حق التملّك إلا للسلعة التي أنتجها . »[1]

بيد أن الملكية لا يمكن أن تكون — كما بين نقاد الرأسمالية في أغلب الأحيان— إلا نظرية إذا ظلّت الموارد الطبيعية ووسائل الإنتاج في أيدي بضعة أفراد . وهنا ، حلّ الزنجي المشكلة أيضاً في وجهة إنسانية . فالأرض وكل ما عليها — أنهار ، جداول ، غابات ، دواب ، أسماك — إنما هي مال مشترك ، موزّع بين الأسر ، وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة أحياناً الذين يملكون عقاراً ملكية موقتة ، أو ريعه . ثم إن وسائل الانتاج عامّة وأدوات العمل ، ملكية مشتركة للعشيرة أو للهيئة (كوربوراسيون) المنتجة .

ينتج عن ذلك أن ملكية المحاصيل الزراعية والحرفيّة جماعية ، ما دام الشغل نفسه جماعياً . مما يفضي إلى هذه الميزة الرئيسية : كل إنسان مؤمّن مادّياً ، أي « الحد الأدنى الحيوي » حسب حاجاته . وفي مأثورات « الولوف » هذا القول : « حينما تنضج الغلّة ، تصبح خاصة الجميع » وثمة ميزة أخرى لا تقل عن سابقتها من ناحية الحياة الشخصية : وهي أن تحصيل الكمالي وهو بذخ ضروري ، يصبح ممكناً عن طريق الشغل ، فالملكية الفردية هكذا منظمة وضيّقة ، لا محدودة .

ذلك أن الزنوج لا يستعبدون الشخص كما يسبق عفواً إلى الأذهان ، وإن أهملوا الفرد . ويبدو لي أن الشخص أقلّ قيمةً في الحاجة إلى التفرّد التي تعذّب الفرديين المحدثين ، وهو أقلّ في واقع التميّز ، أكثر مما هو في عمق الحياة الروحية وشدّتها . والزنوج لم يناقشوا في الشخص — من المعروف أنهم يتحادثون ونادراً ما يناقشون — وهم الذين أعانوا على ازدهار الحياة الشخصية ، حتى في الشكل الجماعي للملكية .

كتب ماريتان يقول : « يجب ، كي يكون شكل الملكية الجماعية ، معونة

---

(١) M. Delafosse : Les Nègres.

فعّالة للشخص ، أن لا تنتهي عند حدّ من امتلاك لا شخصية له [١] . » .

والإنسان عند الزنوج ، مشدود إلى هدف الملكية الجماعية ، برابطة العُرف القضائية والتقاليد المتبعة ، مشدود أيضاً ، على الأخص ، برابطة صوفية . ولنتوقف قليلاً عند هذه العشيرة — الأسرة ، الهيئة ، اللدات — ذات شخصية خاصة ، وهكذا يشعر بها كل عضو من أعضائها . الأسرة هي الدم نفسه . أو هي ، كما رأينا ، شعلة يتقاسمها أبناء الأسرة الواحدة . والهيئة ليست سوى أسرة نسبيّة تتمتع بخاصة وكأنها « فنّ » خاص ، فالإنسان يشعر معها إذن أنه شخص مِلّيّ — وهذا ما أقبله — تجاه الغاية من الملكية . ولكن الغاية نفسها تتحول غالباً في الشعور ، وكأنها شخص.وتلك هي الحالة إزاء الظواهر الطبيعية من سهلٍ ، إلى نهرٍ ، إلى غابة . ولقد بيّنا أن الجد الأعلى ارتبط بالأرض إذا احتلّها باسم الأسرة . والأرض جنية أنثى ، ولذا ، يحتفل « علناً » بزواج العشيرة الصوفيّ والارض — الأم .

وهكذا ، لا تكون ملكية وسائل الانتاج بعد ذلك شيئاً نظرياً ، انتقالياً ، موهوماً . والعامل يشعر أنه شخص له معنوياته ، وما هو مجرد دولاب في آلة . إنه يعلم أنّ ذكاءه وذراعيه تعمل بحرمة لشيء خيّرٍ ، هو له . وحتى عضو الهيئة الذي تنحط مهنته عن عمل الفلاّح ، يعلم أنه لا سبيل إلى إحلال من يقوم محله . وعلى هذا النحو تُلبي الحاجات الإنسانية الكبرى من حرية حقيقية ، وشعور بالتبعة ، وكرامة ، وهي حاجات الشخص .

والعمل ليس سُخرة ، وإنما ينبوع فرح ، لأنه يتيح تحقيق الكينونة وتفتحها. ومما يلفت النظر أن الفلاحة ، في المجتمع الزنجيّ ، أشرف الأعمال . ولنذكر هنا الولايات المتحدة ففيها يشعر عمال الزنوج في الشمال ، وهم الناخبون الناشطون ، بحنين إلى مزارع الجنوب حيث يعيش إخوانهم عبيداً ، وشعراؤهم ينشدون أمثال هذا النشيد :

---

(١) L'Humanisme intégral .

هناك أشجار مثمرة محمّلة بالثمار على مقربةٍ من سواقٍ عذبة الحرير
وأصابيح مغمسة بالندى ، وسماوات صوفية زرقاء
تبارك هاتيك الراهبات العذارى من الروابي [1] .

ذلك بأن الفلاحة تتيح الوفاق بين الإنسان و « الإبداع » القائم في صميم المشكلة الإنسية ، وهذا الوفاق يتحقق على إيقاع العالم ، ذلك الإيقاع الذي لا يكون أبداً آلياً ، ويتسم بالحرية والحياة . إنه إيقاع الليل والنهار ، والفصول السنويّة التي تندمج في فصلين اثنين في افريقيا ، والغِراس التي تنبت وتذوي . والزنجي (الذي يشعر بوحدة التناغم والعالم) يوقع عمله بالغناء والتمتمة الملحّة إنه عمل زنجي ، نغم زنجي ، فرح زنجي ينطلق بالعمل ، وينطلق من العمل .

السياسة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب الاجتماعي ، وذلك من الأمور البدهيّة. بل إن هذا الجانب للسياسة كيد الفنان لعقله ، والمراد منها تنظيم المدينة،وصيانتها والسير بها في مدارج الكمال ، أي الحكم والتشريع . والحكم يقتضي السلطة والتشريع يقتضي الحكمة . وكل واحد من هذين يوجب الرجوع بهما إلى الأصول ، والتطلّع إلى خير الجماعات والأشخاص ، إلى خير المدنية . وهذه المقتضيات موضع تنكر في الديمقراطيات الغربية الراهنة ، فالمشرّع ينتخب ، في أفضل الحالات من قِبَل حزب هو رُكامُ فوائد مادية ، وتشريعاته إملاءات أوليغركية مالية ، من أجل بقاء هذه الأوليغركية ، فهي غير إنسانية على نحو مزدوج ، لأنها مفعمة ، على نحو مزدوج أيضاً ، بالرذيلة . أما الحكومة فإنها ، على الرغم من قوى الشرطة التي تزداد يوماً عن يوم ، بلا سلطة ، وذلك لأنّ السلطة تقوم على تفوّق روحيّ،والحكم هو في أيدي المَهَرَة (الشطّار) والدمى التي تحركها خيوط خفية،أي هو في أيدي محترفي السياسة بدلاً من رجال الفكر السياسي .

---

(١)وانظر من جهة ثانية مؤلفات جين تومر الشعرية المعنونة، Claude Mac kya Cone وكذلك نجد تلميذاً من الأنيل في دار المعلمين العليا استطاع أن يقدم للسوربون تذكاراً حول موضوع « الجنوب في الأدب الزنجي ـ الأميركي » . (المؤلف)

والأمر في مملكة زنجية نموذجية ، يختلف عن ذلك ويغايره ، كما كانت الحال مثلاً في مملكة السيرير من السين (السنغال) ، إذ كان المجلس التشريعي يتألّف من كبار الأشراف والأعيان ، رؤساء العشائر ، ومن هنا كانت تردُ الحكمة ، أي من معرفة التقاليد ، من الحنكة في الحياة والشعور بالتبعات . والقضية إنما هي التوفيق بين التقاليد والتقدّم وهذه المقاوهة للتقدم التي كثيراً ما تشجب ، إنما تقوم في الأوضاع الجغرافية أكثر مما هي في العبقرية الزنجية .

السلطة للملك ، وهي نفوذٌ ذو طابع روحيٍّ[١] ؛ إنه يرمز إلى وحدة المملكة ، وهو في الأصل من سلالة قائد الشعب ، فهو يمثل الشعب كما يمثل قائده في الوقت ذاته . السلطة للملك لأن الشعب « يتشرّف بشخص الملك ، في ذاته وبماضيه[٢] . » . لأن الملك مختار الشعب عن طريق أهم رؤساء الأسر ، ولأنّ الذين اختاروه يستطيعون وقف سلطته أو خلعه . إنها فعاليّة السلطة ، لأنها تقوم على أساس من النفوذ ، وتمارس عن طريق عديد من الوزراء الذين لا يملك العاهل اختيارهم ، ولا إقالتهم ...

هذه صورة مجتمع « جمْعي » ، متناغم ، ذي « وحدة جمعيّة » أي مدنيةً قائمة على شكل الجماعات الطبيعية ، ومرتكزة عليها ، فإن الهيئات والجمعيات نفسها لا تدوم بغير نفوذ .

والفرد ؟ هذا هو السؤال الذي أترقب أن يطرَحَ عليّ مجدّداً ، وأجيب مجدّداً : الفرد مُهمَلٌ بمقدار ما يقوم على أساسٍ من حريةٍ مزيّفة وتميز مصالح . والأمر مغاير كلّ المغايرة في حالة « الشخص » . إني لأعترف أنّ المجتمع الزنجيّ لم يبذل اهتماماً كبيراً في سبيل تنمية العقل وتلك إحدى الثغرات في حياته . وما كان للشخص فيه أن يلقى فرصة للتنامي وفرض نفسه في وسط المحافل والهيئات ومجالس المناقشة . ونحن لم نقل ما فيه الكفاية حول أهمية

---

(١) C f. Daniel - Rops : Ce qui meurt et ce qui naît p. 37-8

(٢) D. Westermann : op . Cit .

« محافل الجدل » فقد كانت تسودها المساواة ، وشعور المرء فيها بكرامته الإنسانية . وكان مثل هذا الشعور يفعم الناس كلهم حتّى الخادم والأسير . وقد عرفت أفراداً انتحروا – وهي خطوة لا يقدم عليها إنسان ضئيل الشعور بالحرية – لاتّهامهم بالسرقة أو الكذب .

الأمر الذي نسيه العالم الحديث ، وهو أحد أسباب الأزمة الحضارية الراهنة ، أنّ تفتّح الشخصية يتطلّب إدارة خارجةً عن النزعة الفرديّة ، وليس له من مكان إلا على ارض الأموات ، في مناخ الأسرة ، والجماعة . وهذه الحاجة إلى التواصل الأخويّ أعمق إنسانيةً من الحاجة إلى الانطواء على الذات ، ولا يوازيها في عمقها سوى الحاجة إلى ما هو فوق الطبيعة .

قيل: إن الرحمة غريبة عن الروح الزنجي . ربما كانت الرحمة كذلك ، لا المحبة ، ولا كرم الوفادة ، فلقد كان في كل مكان « غرفة الضيوف » حيث يتراكم النزلاء الغرباء . وإنها لعادة متبعة وهي دعوة العابر إلى مقاسمة الأسرة طعامها.والبيضُ الأوّلون أنفسهم الذين نزلوا على شواطىء أفريقيا اعتُبروا ضيوفاً سماويين . وكان أعظم ثناءٍ على المرء لدى قبائل الولوف نعته أنه« يحب أهله ويحب الناس . » . وشعراء الزنوج الأفرو- الأميركيون كانوا يردّون على الذين دمّروا حضارتهم ، على سفّاحيهم وظالميهم ، بكلمات السلام :

أردّها بمودّة
وقد جعلت ردّي هكذا
لأني محوت الحقد منها
منذ زمن طويل[1] .

وليس ذلك ضرباً من الكلام الفارغ . وهذه « الإنسانية » في الروح الزنجي ، وهذا العجز عن البغض على نحو دائمٍ ، أعان على حلّ المشكلة العنصرية في

---

(١) Levis Alexander : Transformation .

أميركا اللاتينيّة ، وحتى في أميركا الشمالية . وأظنّ أن المآتي الزنجية في الحقل الاجتماعيّ والسياسي لن تقف عند حدّ . وذلك يردنا إلى الكلام عن الدور الإنسيّ لعلم السلالات البشرية . فانّ على هذا العلم ، في إنضاج عالم أكثر إنسانيةً ،أن يطلب إلى كل شعب أن يُعطي أفضل ما عنده . ولن تأتي الشعوب الزنجية خالية الوِفاض ، عند لقاء الجانب الاجتماعي والجانب السياسي ، في عالمٍ مقسمٍ بين الفردية الديمقراطية والعامّية التوتاليّة .

كان أن اقتصرت مآتي الزنوج في عالم القرن العشرين ، على الأدب ، والفنّ عامّةً ، ونحن ننتظر ما قد تقدّم في المجالات الأخرى . وإن دراسة الأدب الأفريقي والأفرو- أميركي الجديد ، تجرّنا إلى أبعد مما نريد ، أيّا كان حظها من التشويق وإثارة الاهتمام ، وسأقتصر الآن على النظر في النحت (فنّ البلاستيك أو صنع التماثيل) والموسيقى . وهذان مما لا يجوز الفصل بينهما إلا لدواعٍ عملية ، فنحن نجد العناصر نفسها هنا وهناك ، لدى الأفارقة في هذه الديار وفي أميركا ، أيّاً كان الرأي الذي يقول به أهل الاختصاص . وفضل التجربة الاميركية أنها حذفت من الفنّ الزنجي كل ما هو غير دائم ، وغير إنساني .

بيد أن تلك المآتي الفنيّة لم تكن خصيبةً إلا لدى قلة نادرة من الموهوبين ، فإن ثمّة ، على نحو عام ، اقتباساتٍ جزئية ، مفرغةً من كل نسغ ، لأنها أفرغت من كل روح . وإني لأخشى أن يكون السرياليون أنفسهم لا ينطوون على انجذاب عاطفي أبداً مكتوم،تجاه الزنجي ، أي على عاطفةٍ نيّرة . ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ما نعرض في عالم استعبدته المادّة والعقل ، ولا يُنكر فيه العقل إلا لإعلان أولوية المادّة . وذلك هو سبب انحطاط الفن في القرن التاسع عشر . والنداءات التي نشرتها مجلة « البوزار » تحت عنوان « في سبيل الفن الفرنسي » ذات مغزى . والمدرستان الفنيتان : الواقعية والانطباعية ليستا سوى مظهرين لذلك الضلال نفسه . وإنها لعبادة الواقعي التي ساقت إلى

« الفن الفوتوغرافي » . والعقل في آخر المطاف ، هو الذي يستمتع بتحليل الواقعي ومزج عناصره ، بغية لعبةٍ دقيقة وتمويه على الواقع . وتلك نتيجة طبيعية لموقف تيوفيل غوتيه : « إنّ جسدي المتمرد لا يريد أن يعترف بتفوق الروح في شيء ، وبدني لا يفهم أبداً أن يُسعى في إماتته ... هناك ثلاثة أشياء تلذني : الذهب والرخام والأرجوان : بريق ، وصلابة ولون[1] » . وإن في الإمكان أن تتغاير التفضيلات ، لا الروح ، وأعني غياب الروح هو الذي يختلف . ومن هنا كانت هجمات بودلير على « المدرسة الوثنية » ، وهجمات سيزان من بعد وغوغان ، وانعطاف تلامذة هؤلاء على الفن الزنجي ، وتقدمهم نحوه حتى العثور عليه .

ذلك بأنّ ميزة الفن الزنجيّ أنه ليس حذلقة ، ولا لعباً ، ولا مجرد متعة جمالية : ميزته أنه يعني شيئاً .

وإني لأختار النحت مثالاً للفنون التمثيليّة « البلاستيك » ، باعتباره أكثرها نموذجية . فإن تزيين أبسط الأواني والأثاث الشعبي ، حتى هذا التزيين ، أبعد ما يكون عن تحويل هذه الأشياء عن هدفها ، أو يكون زينةً باطلة ، وإنما هو يبرز ذلك الهدف ويضع تحته خطاً . إنه فنّ عمليّ وليس نفعياً . إنه كلاسيكي بهذا المعنى الأولي ، وعلى الأخص « روحي » — وقد قيل خطأ : مثالي أو ذهني — لأنه ديني . ووظيفة المثالين الجوهرية إنما هي تمثيل الأموات القدامى والعباقرة في تماثيل تكون رمزاً ومقراً في آن واحد . والمراد أن تجعلك قادراً على التقاط أرواحهم الخاصة كإرادة فعّالة ، أن تنفذ من خلالها إلى ما فوق الواقع .

وهذا النفاذ إنما يكون بتشخيصٍ إنسانيّ ، بتشخيص وجهٍ إنسانيّ دون غيره ، هذا الوجه الذي هو الانعكاس الأكثر أمانة للروح . وإنه لواقع صارخ

---

(١) Mademoiselle de Maupin .

أن التماثيل ذات الشكل البشري ، ومن بينها الأقنعة ، هي السائدة . وذلك ينبيء أن المهمّ الدائم منصرف إلى الإنسان الوسيط .

هذه الروحانية تفصح عن نفسها في العناصر الأكثر محسوسية من الواقعي . والفنان الزنجي مثال أكثر مما هو مصوّر ، وخالق نماذج (أشكال) أكثر مما هو رسام ، يشتغل بيده المادّة الجامدة ذات الأبعاد الثلاثة ، شأنه شأن الخالق . وهو يختار المادة الأكثر محسوسية مفضلاً البرونز ، والعاج ، والذهب ، والخشب أخيراً الذي هو شائع أكثر من غيره ، ويُقبل على التأثيرات الأكثر خشونةً وبروزاً كما يسعى وراء أدق الأفاريق . وقليلاً ما يستخدم الألوان ، وإذا استخدمها جعلها دوماً صريحة حتى الاشباع من أبيض وأسود وأحمر ، وهي ألوان أفريقيا . ويستعمل أكثر ما يستعمل خطوطاً، وسطوحاً، وأحجاماً، أي الخصائص الأكثر مادّية .

غير أن هذا الفن ، مذ كان ينزع إلى التعبير الجوهري عن الموضوع ، يقف على طرف النقيض من الواقعية الذاتية . الفنان يُخضع التفصيلات فيه لسلّم روحي ، ومن ثمّة تقنيّ ، فحيث لم يشأ كثيرون أن يروا سوى خُرْقٍ في اليد أو عجز عن ملاحظة الواقع ، هناك في الحقيقة ، « إرادة » ، أو وعيٌ ترتيب على الأقل ، بل ما هو أفضل . قصدٌ إلى الإخضاع . وكنت قد بيّنت الأهمية التي يوليها الفنان للوجه البشري .

هذه القوة الترتيبية التي يقوم بها الطراز الزنجيّ وتميّزه ، هي النغم[1] (ما يقابل الوزن في الشعر) . إنها الشيء الأكثر محسوسية والأقلّ ماديةً . إنها العنصر الحيويّ من أعلى درجة . إنها الشرط الأولي للفن وعلامته ، كنَفَس الحياة ، ذلك النَفَسُ الذي يتسارع أو يبطيء ، ويغدو منتظماً أو مرتجفاً متقطعاً ، حسب توتّر الكيان الحيّ ، ودرجة الانفعال وكيفيته . وذلك هو النغم في الأصل من وجوده ، في صفائه وخلوصه ، وكما هو في بدائع الفن الزنجي وفي النحت ، على الأخصّ . إنه مؤلف من موضوع — شكل تمثالي — يتعارض

(1) Cf. Paul Gillaume et Thomas Munro : La Sculpture négre primitive

مع موضوع شقيق له ، كتعارض الشهيق والزفير ، ثم يكرّر نفسه ، وليست هي المطابقة التي تولد الرتابة . النغم حيّ ، وحر ، فإن التكرار ليس إعادة القول نفسه ولا ترداد النغم نفسه فالموضوع يكرّر في مقام آخر ، على مستوى آخر ، في ملابسة أخرى ، وباختلاف وتنوّع ، ثم يعطي إيقاعاً آخر ، ولهجة أخرى ، وجرساً آخر . وعلى هذا النحو يؤثر النغم فيما هو أقلّ الأشياء ذهنيةً في كياننا ، وبشكل مستبدٍّ ، ليحملنا على النفاذ ، إلى روحانية الموضوع . وهذا الموقف من الاسترسال الذي يختصّ بنا ، هو نفسه نغميّ .

إنه فنّ كلاسيكي بالمعنى الأكثر إنسانية للكلمة ، لأنه « رومانسية مُسيْطَرٌ عليها » ولأن الفنان ، وهو يسيطر على غناه العاطفي يبعثنا على الانفعال ، ويقود انفعالنا حتى نبلغ المثال ، بالوسائل الأكثر بساطة ، والأكثر استقامةً ، والأكثر نهائية . وكل الأشياء تتلاقى في الغاية ، فليس هنا أية حكاية ، ولا أية زينة موسيقية ، ولا زهرة ، ولا شيء يُلهينا . والفنان إذ يرفض أن يفتن البابنا ، إنما يفتح أرواحنا ويستلّ إعجابنا . إنه فن كلاسيكي كما عرفه ماريتان : « إخضاع كما المادة لنور الشكل ... بحيث لا يُقبل في العمل أي عنصر ماديّ وارد من الأشياء أو الموضوع ، دون أن يكون حاصلاً كدعامةٍ أو كعربة نقلٍ لذلك النور ، ويقتحم العين والأذن أو الروح ثقيلاً عليها أو مفسداً لها[1] »

لم تكن الأفكار ولا الروحانية الأصيلة التي تعوز موسيقى القرن التاسع عشر في نهايته – ويكفي أن نستشهد بسيزار فرانك وغبرييل فوره في فرنسا – وإنما هو النسغ الفني والوسائل الجديدة . فالله غير منظور للعلماء ، كما للروح . وراح كلود ده بوسي وداريوس ملهود وإيفور ستروتسكي وأمثالهم يشعرون بالحاجة إلى اجتياز القواعد الاصطلاحية التي أصبحت عقيمة واندفعوا نحو اكتشاف الحصباء المجهولة و « الجذور الدفينة الخفيّة » .

والموسيقى الزنجية إنما تلبي هذه الحاجات ، وهي التي أخذت وحدها تُدرس بروح جادة في أوربا . وإذا كان الآخرون قد أحسوا بتأثيراتها ، فإن أحداً لم

---

(١) Art et Scolastique .

ينفذ بعد إلى تقنيتها . وهي لا تؤلف كالنحت أيضاً ، في المجتمع الزنجي الأفريقي ، فناً مكتفياً بذاته . فهي تواكب في الأصل من نشأتها ، رقصات الشعائر وترانيمها . وإذا كانت قد انتزعت من حرَمها ، فإنها لم تستقلّ بذاتها ، فلها مكانها الطبيعي في تظاهرات المسرح الجماعية ، والأعمال الزراعية ، والمحافل الرياضية . وهي ، حتّى في أناشيد العشايا اليومية ، ليست مظاهرة جمالية خالصة ، وإنما تجعل أولياءها على صلة أوثق بنغم الجماعة الراقصة ، بالعالم الراقص . وقد بقي منها الشيء الكثير لدى الزنوج المتمغربين ، المتأمركين. فهؤلاء يرقصون موسيقاهم ، غريزياً . إنهم يرقصون حياتهم .

ذلك يفيد أنّ الموسيقى الزنجية كالنحت ، كالرقص ، ذات جذور في التربة الّتي أرضعتها وأنها محمّلة بأنغام تلك الأرض ، وأصواتها ، وضوضائها . ولا يعني ذلك أنها وصفية أو انطباعية فهي أيضاً تترجم عواطف معيّنة ، وليست عاطفية البتة ، من ناحية أخرى . إنها تجلب النسغ الضروريّ للموسيقى الغربية الّتي أصبحت فقيرة ، لأنها تقوم وتتجدّد أبداً على قواعد كيفية وجدّ ضيقة ، على الأخص .

لن أتكلم عن المآتي اللحنية ـ الصوتية (الميلودية) ، فهذه أيضاً من البدهيات. وذلك ركنٌ بحث بإسهابٍ أكثر مما عداه . وليس الأمر كذلك في المجال المودالي . فهذا لا يزال مجهول الثروات الكامنة فيه . ويعود السبب ، جزئياً ، إلى أن «التقنيين» أنكروا وجود تناغم (هارموني) زنجي ، وهذا مما يجادل فيه موسيقيون حاذقون مثل باللانطا[١] . هؤلاء يلفتون النظر إلى أن الزنوج يغنون في جوقة (كورس) ، وأنهم على عكس أغلب الأغاني الشعبية ، لدى الشعوب الأخرى الّتي تجمع المغنين في غناء موحّد (أونيسّون) ، نجد الكوارس في بلاد الزنج تتألف من أقسام عدّة . وإني لأذكر شخصياً العناء الذي كان يكابده « أبونا » المغني وهو يعلم الأولاد السود ، في حملنا على توحيد غنائنا من غير

(١) C f. Ballanta : Preface to st. Helena spirituals, Cité par Alain Locke dans The Negro and his munsic .

أقسام وتنويعات . ويلاحظ دو لا فوس ، وهو يتحدث عن الكوارس الزنجية ، أن « التناغم فيها كامل حتى الاتقان في التكامل» وكتب جيد، من ناحيته ، يقول : « الإبداع النَغَميّ الكئيب معجز (وكأنه ساذج) ، ولكن ما القول في التناغمي ! ذلك بأن دهشتي هنا تتركز . كنت أعتقد أن هذه الأغاني كلها ذات صوت واحد وقد أذيع أمرها على أنها كذلك ، إذ لم يكن فيها أبداً « مثالث ومسادس » . غير أن هذه الأصوات العديدة المتجمعة في صوت واحد بالتوسيع والإخفات للصوت ، موحشة لآذاننا الشمالية ، لدرجة أني أشك في إمكان الإشارة اليها بوسائلنا التسجيلية[1] »...

وقال جيد أيضاً : « إن أغانينا الشعبية لتبدو ، إلى جانب هذه (الأغاني الزنجية) فقيرةً ، ساذجةً ، بدائية » ...

وينهي الرئيس سنغور هذا البحث ، بعد الإفاضة في تحليل « النغم الزنجي » بهذه العبارات « وبهذا، تكون الخدمة التي أدّاها الزنوج ولا يزالون يؤدّونها، أنهم أسهموا ، مع شعوب أخرى ، في إعادة وحدة الإنسان والعالم ، أي في توثيق العلاقة بين الروح والجسد ، والإنسان وأخيه الإنسان ، والحصاة وبارئها. وبعبارة أخرى ، بين الواقعي وما فوق الواقعي ... »

---

(١) Le retour du Tchad .

أفريقيا السّوداء

مقاطع من مقالة نشرت في « لا كومونيته امبريال فرانسيز » (الجماعة الأمبراطورية الفرنسية) عام ١٩٤٥ ، وأهداها المؤلف إلى أحد كبار المعنيين بقضايا أفريقيا الفرنسية ، هو « روبير ده لافينيت » وصدّرها بهذه الكلمة للماريشال ليوتي :

« إن ما أحلم به أن يقدم المغرب (مراكش) صورةً عن « تجمّع إنساني » يتابع فيه الناس على تنوع أصولهم وملابسهم وحِرَفهم وأعراقهم ، السعيَ وراء مثل أعلى مشترك ، ووراء هدفٍ مشترك للتعايش ، من غير أن يتنازلوا عن مفاهيمهم الفردية » (ليوتي في « أقوال العمل »)

سيكون من شأن المِحَنِ التي قاسيناها عام ١٩٤٠ ، أن تسوقنا جميعاً مستعمِرِين ومستعمَرِين ، لا إلى إنامة مشكلة الاستعمار ، بل إلى إعادة التفكير فيها . وتلك واحدة من نتائج هاتيك المحن التي أخصبت بالعبر .

ذلك بأن حلّ مشكلة الاستعمار ، كما يشعر كل منا ، يقوم في الأساس من عملية البعث الفرنسي ، فقد اكتسبت كلمة « امبراطورية » منذ عام ١٩٤٠ هيبة شبه سحرية ، إذ تحوّلت إلى قطب يدور عليه الفكر السياسي الفرنسيّ ، ولم ينعدم في القائلين من كان يتكلم عن « الولاء للامبراطورية » . وكثير عدد الذين شعروا بالدهشة لذلك ، والروعة ، والارتياح الذي كانوا يهنئون معه أنفسهم به .

غير أن هذا الولاء طبيعي في نظر أفريقيا السوداء الفرنسية على الأقل ، وهي التي أعرفها وأودّ التحدّث هنا عنها . وإذا كانت محنة ١٩٤٠ قد فاجأت أفريقيا الفرنسية ، فلا أعتقد أنها كانت فاتحة أزمة وجدانية لها. والواقع أنّ أحداً لم يكن يجهل النقص الذي كانت تعانيه فرنسا في العتاد والتدريب ، ومن ثمة في القيادة العليا . ولكن الفكرة التي يحملها الأفارقة عن الشجاعة الفرنسية لم تصبح موضع شك أو تساؤل. والجنود الذين عادوا من الجبهة ، وشهدوا بطولة ضباطهم ، كانوا هنا شهوداً صادقين على تقدير ما حدث . وذلك لا يفيد أن ولاء السود لم يتعرّض للمحنة ، ولا أريد أن ألحّ في بيان بعض التصرفات السيئة التي اقترفتها الإدارة المحلية وكانت تسيء بها إلى كرامة المواطن الأفريقي الأصيل . وإنما وَجدَ هذا من اللؤم والبشاعة الخلقية أن يتخلّى عن الأمة في إبان هزيمتها ، وهو الذي كان يميّز على الدوام ، بين أخطاء الإدارة والروح الفرنسية الأصيلة. وكان أن تسمّرت أفريقيا السوداء ولم تحرّك ساكناً .

ذلك هو الشيء الذي يتجاوز مشكلة الفتح الاستعماري ، أعني شرعيته ، فان مما لا شك فيه أن في استطاعة الاستعمار ، ومن واجبه ، أن يكون خيراً للسكان الأصليين ولكن تبريره بالمحاسن التي يفضي اليها ، يفيد أخذ النتيجة هدفاً . ما من فرنسي يحسب في النهاية أنّ فتح روما لغاليا (فرنسا القديمة) لم يكن من الخير لهذه الأخيرة . ومع ذلك فإن فرسنجيتوريكس بطل قوميّ في تاريخ فرنسا ، وما من شيء في الدنيا يبرّر المذابح التي وقعت في أيامه مثل تلك التي جرت في

آفاريكوم إذ هلك من ٤٠,٠٠٠ نسمة ٣٩,٢٠٠ . لا ! لا يمكن أن يبرّر الشرّ الخير الذي ينجم عنه. ولقد كان من يوليوس قيصر ، شأنه شأن المستعمرين المحدثين ، أن برّر غزواته بالدفاع عن « الحدود » ، عن « ديون الدولة » ، عن « مصالحها » وتلك هي الكلمة الأخيرة ، فلا يطلب إلى الفاتحين أن يكونوا قديسين . وليس لفرنسا أن تبرر فتوحاتها الاستعمارية ، كما أن تبرر ضمّ مقاطعة بريتانيا اليها أو بلاد الباسك . وإنما عليها فقط أن توفّق بين مصالحها ومصالح الأصلاء السكان . والمشكلة الاستعمارية ليست ، في الأساس ، شيئاً سوى مشكلة إقليمية ، سوى مشكلة إنسانية . وما أنا أول من لاحظ ذلك . وكان ليوتي قد أفصح عنه ، بل إن ده لافينييت ، وهو أقرب الينا ، وكان من كبار الأمبرياليين الإنسانيين ، قد بيّن هذه الحقيقة في كتاب ذي عنوان غني الإيحاء هو : « سودان – باريس – بورغونيا » إذ جعل باريس همزة وصل بين الاقليمين .

احتكاكات

ها نحن إذن أمام الواقع الإستعماري . وعلينا ، انطلاقاً من ذلك الواقع ، أن نورد السؤال : ماذا تفعل فرنسا بمستعمراتها ؟ ماذا يجب عليها أن تعمل بالسكان الأصليين ؟ كنت مرة أحاور أحد أصدقائي من الفرنسيين ، وقد دهش أني لا أريد أن أرى في الزنوج الأفارقة قوماً « بدائيين » على الرغم من إطلاق النعت الهوميري عليهم أنهم « جذابون ، محببون » ، فاعتقد أن عليه إنهاء الحوار معي بهذه العبارة : « اعترفوا أخيراً أننا أتيناكم بالحضارة ! » وكان جوابي له : « لا على وجه الدقة . أتيتمونا بحضارتكم . دعونا نأخذ منها أخصب وأحسن ما فيها ، وتحملوا منا ردّ الباقي . » إنه « الاحتكاك بين حضارتين » . ذلك ما يبدو لي أنه أفضل تعريفٍ للمشكلة . وكيف دار الأمر ، فإننا سندرسها من هذه الزاوية .

ليس الاستعمار واقعاً وحسب ، وإنما هو واقع تاريخي . وإنه ليصبح في إمكاننا حلّ المشكلة على نحو أفضل فأفضل ، إذا نحن درسنا كيف حاول

الأقدمون في الماضي حلها . وعلى الانتقادات التي توجّه إلى النظريات التي وُضعت ، والطرائق التي اتّبعت ، كما توجه إلى الحلول المقترحة ، أن تنطلق من ذلك التحليل . والأكيد الثابت أن التيارات التي تتوزّع اليوم رجال النظر من أهل الاستعمار – التمثيل أو المشاركة – ليست بنت أمس ، فنحن نجدها في الأصل من الاحتكاكات التي حدثت بين فرنسيين وغير أوروبيين . وتعود في الزمن الى الاكتشافات الجغرافية الكبرى ، أي الى ما قبل الحروب الصليبية . ومن الممكن تتبع تطورها بكل سهولة ، وتلمّس ولوجها في المقالة الرائعة التي كتبها أندره سيدوبر ونشرها في « لُم ْ ده كولور » (الإنسان الملوّن) .

لننظر أولاً إلى عقيدة « التمثيل » أو الدمج التي تبدو اليوم في حالة نبذ خاص ، فهذه العقيدة رغم نبذها ، لاتينية ، وفرنسية في أول منزلة ، لأنّ صياغتها ، وإعطاءها أوضح وجه وأسنى مكانة ، إنما جرت أول ما جرت في فرنسا ، وهي ، على الأخص ، أحد تعبيرات العقلانية الفرنسية ، هذه العقلانية التي لا تزال تهيمن على الأذهان ، رغم الضربات التي وُجّهت اليها ، وكانت وليدة المذهب الديكارتي .

وإذا كان ديكارت قد حكم بنفي « الأهواء » وابعادها أو إذا كان يريدها بتعبير أدق ، أن تُغلَب أو توجّه من قِبَلِ « أحكامٍ ثابتة مقرّرة تتصل بمعرفة الخير والشر » أي من قِبَلِ العقل ، فذلك لأنه كان يحسبها أقلّ جوهرية في بناء الطبيعة البشرية . أليست هي من مشاركات الجسد وجوهر الإنسان أنه كائنٌ مفكر ، أو قصبة مفكرة ، كما يقول باسكال ؟!

ذلك بأن العقل واحد في كل مكان لدى جميع الناس على تباين حالاتهم وأوضاعهم ، بينما الأهواء متعدّدة متنوّعة لدى الأناس المختلفين . والحس السليم في الحياة العملية ، هو «الشيء الموزّع أفضل التوزيع في العالم». والواقع أن المعاصرين يجدون في « ذوي الأطوار الغريبة » ، تحت الفروق في الثياب والعقائد والأخلاق ، أناساً يشبهونهم . وكان ذلك هو رأي الذين سبقوا مذهب ديكارت أمثال مونتين ورابليه ، وكانوا يعتقدون أن في البدائيّ من سكان

القارات الأخرى « ولداً رضيعاً » ، ولهذا السبب نفسه ، يمكن تدريبه وتربيته . وقد أصبحت قولة الملك الشمس لحفيده الأمير الأسود أينابا شهيرة ، ولها دلالتها المعروفة، إذ جاءه ذلك الأمير يستأذنه عشية إبحاره إلى ولاياته الجديدة، وكان من لويس الرابع عشر أن شيعه بهذه العبارة : « أيها الأمير ! لم يبق مني...اليك ، سوى فرق ما بين الأبيض والأسود . » وتفسير هذا القول: ها أنت أصبحت فرنسياً ذا إهاب أسود بعد التربية التي أنشأناك عليها في بلاطنا . وتلك هي صيغة التمثيل أو الدمج .

ومن المعروف أن القرن الثامن عشر ، قرن الفلاسفة اندفع مع العقلانية الديكارتية حتى آخر حدودها . وكان إعلان حقوق الإنسان أحد عباراتها السياسية . والشمولية الفرنسية تتحدث عن « الإنسان » لا عن « الناس » . وإذا هي تحدثت عن الناس أضافت إلى جمعهم كلمة « كل ». وإلى « جمعية أصدقاء السود » كان ينتمي أبرز الفلاسفة وهي نفسها التي نقلت مبدأ حقوق الإنسان إلى المجال الاستعماري والعملي ، وهي التي حملت ، آخر الأمر ، أولي الأمر ، على التصويت بجانب إلغاء الرق في ٤ شباط (فبراير) عام ١٧٩٤ ، وانتصرت فكرة التمثيل . ولكن نابليون أعاد الرق بعد ثمانية أعوام ، وقد ندم على ذلك من بعد ندماً شديداً . وحين عادت الملكية إلى فرنسا ، أصبح تيار الدمج أصمّ ، ولم يكن النظام الملكي غريباً عن هذا الصمم ، ولكن ذلك التيار أحرز انتصاراً مرةً ثانية عام ١٨٤٨ على يد الاتحاد الذي حصل بين الثائرين والكاثوليك ، ولا عجب في هذا التحالف ، لأن الكثلكة شمولية النزعة في جوهرها ، ولذا ، فهي تنزع إلى تمثل غيرها « لأنها توحد ، كما يقول أحد تعاميمها الكنسية ، لعـل جميع الناس يتعبّدون لله ، بالروح والحقيقة » . وقد كتب الأب غريغوار ، الذي كان روح « جمعية أصدقاء السود » يقول : « الديانة المسيحية وسيلة لا تخطىء ، إلى نشر الحضارة وصيانتها » .

وعقيدة تلك الجمعية ــ وربما كان من الواجب القول : « طقوس تلك

الجمعية » – إنما هي عقيدة فرنسا القديمة ، في القرون الوسطى ، يوم كان ملك فرنسا ملك « الولايات » والأقاليم التي كانت تحتفظ بتقاليدها وحياتها الاقليمية الخاصة . ولذلك فرضت تلك الجمعية نفسها منذ الحروب الصليبية ، إذ كانت فتوحاتها الاستعمارية الوحيدة التي لم تكن ذات مصالح ماديّة ، ولا كان هدفها نفعياً . وكان الكاثوليك ، والمنشقّون ، والمسلمون ، وغيرهم يعيشون جنباً إلى جنب، ولكل فئة نظامها الخاص، بينا كان في استطاعة كل فرد أن يبلغ الرتبة والمنصب اللذين يسعى اليهما أو يستحقهما . وقد كتب سيدوبر يقول : « ان التشريع ، في صميم القرون الوسطى ذات النزعة الدينية الخالصة ، يحترم نظام الأحوال الشخصية الذي ينص عليه دينه ؛ وهكـذا استطاعت « ثلاث فلسفات ، وثلاثة أجناس ، وثلاث نظرات جمالية » أن تعيش فوق تربة واحدة ، وتطبعها كل واحدة منها معاً ، بطابعها .

وكان لا بد من انتظار القرن التاسع عشر للعودة إلى مراس الشراكة في هذه الحياة التي يفعمها التسامح ، وتتضح العقيدة في صيغة جلية . ويمكن استخلاص عدة أسباب لذلك : هناك أولاً ما أثبتته الوقائع من مساوىء التمثيل ، بل إن مراس هذه العملية المتسرّع ، وإغفال كثير من الاعتبارات ، هما أبرز المساوىء لأن العبيد الذين اقتلعوا من جذورهم وحملوا على التنصّر اندمجوا في عالم غير عالمهم ، وكان من فتح الجزائر في جانب آخر وبرّ السنغال ، أن ساق إلى البلاد جماعات مسلمة عسيرة التمثيل ، إن لم يكن تمثيلها مستحيلاً . وأخيراً — وهو أهم الأسباب دون ريب – أن الذهنيات تطورت ، فإن القرن التاسع عشر شهد تنامياً خارقاً للمعتاد في العلوم التاريخية واللغوية والبيولوجية ، والاثنلوجية، فقد أدرك الجمهور أن الناس حتى في أوروبا يختلف بعضهم عن بعض ، وأن هناك حضارات لا حضارة واحدة . وأن هذه الحضارات العديدة كانت وليدة التلاقح بين عدة عوامل : التاريخ واللغة ، والعرق ، والجغرافية ... وحين هوت فرنسا نفسها عن الذروة التي كانت تحتلّها وأقلعت عن نشوتها الديكارتية والثورية ، راحت هي تتساءل أيضاً فيما « إذا كان الله فرنسيّاً » . وعلينا أن

لا ننسى هنا أن القرن التاسع عشر هو قرن الأمم والقوميات ، وقد ورثه القرن العشرون .

وكان أن ظهر مفكرو المشاركة الذين كانوا في الوقت نفسه ، واقعيين ، وذوي حسٍّ إنساني وطبع كريم عميق ، ابتداء من بوجو حتى روبر ده لافينييت ، مروراً بنابليون الثالث وفيد يرب ، وليوتي . ونظرية هؤلاء تلخصها كلمة ليوتي التي توّجت بها هذا المقال . وده لافنييت يتابع ليوتي ويمضي إلى أبعد فيما يبدو لي بمعنى «الوفاق المصالح» الإنساني. فقد كتب في سودان — باريس — بورغونيا : « إن العشرين ألفاً من تلامذة السودان في أيامي سيصبحون عما قريب مائة الف . وسينتقلون إلى مدرسة سودانهم ، وسيبعثون هذا السودان في قِيَمِه الخاصة في الوقت الذي يجدّدونه به ، إذ يشركونه مع فرنسا . »

ونحن أبناء أفريقيا السوداء نجعل من هذا الكلام ما ينطبق علينا ، فإن لنا مزاجاً ، كما أن لنا روحاً أصيلة ، عميقة الأصالة ، وهذا ما يتجلى في أخلاقنا وعقائدنا. وإنه ليمكن نقل التنظيم السياسي والاجتماعي القائم في فرنسا إلى بلادنا بكل مؤسساته من مقاطعات ونواب وبروليتاريا وأحزاب ونقابات وتعليم علماني . ومن الممكن أن نحمل على خسران فضائلنا ، وربما نقائصنا أيضاً ، والتخلق بأخلاق الفرنسيين الرديئة ، وإن كنت أشك بإمكان نقل مزاياهم الينا ، ولكنّ المجازفة الكبرى هي أنّ هذه العمليات تجعل منا نسخاً باهتة عن الفرنسيين ، ومستهلكين للثقافة لا منتجين . وذلك لأن الكرمة — وهذا مثلٌ من آلاف — لا يمكن أن تتأقلم إلا في أفريقيا السوداء ، فهي تنبت فيها ، ولكن الأعناب لا تنضج ، والسر في ذلك أن التربة تختلف ، والمناخ أيضاً يختلف .

أيكون معنى ذلك أن أعداء الدمج على صواب ؟ قطعاً لا ! فهم يسرعون إلى تحقيق الانتصار علينا ، فيما لو قررنا شيئاً من ذلك . إن لنا مزاجاً وروحاً مختلفين ، بكل تأكيد ولكن اليست تلك الفروق في نسبة العناصر أكثر مما هي في طبيعتها ؟ اليس ثمة وراء الفروق وجوه شبهٍ أكثر جوهريةً ؟ والعقل على

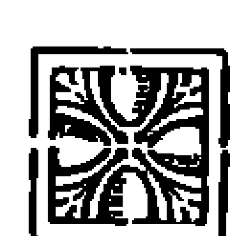
الأخص ، أما هو ذاته واحد لدى الناس أجمعين ؟ أنا لا أعتقد بـ « الذهنية السابقة للمنطق » ، فالروح لا يمكن أن تكون سابقة للمنطق ومن طريق أولى ، معدومة المنطق . وإني لأخشى أن يختلط في الذهن معنى التمثيل ككلمة ، ويجرّ إلى الالتباس . يقول ليتره : « تمثّل : حوّل إلى مثله . الحضارة تمثل الشعوب المختلفة » . ومفهوم الحضارة يبدو لي هنا جد ضيق ، غير أن التعريف ليس رديئاً . وذلك لأن من غير الصحيح أو الدقيق أن حضارةً ما تستطيع تمثيل شعب ما — وعلينا أن نتذكر في تفسير الكلمة أن « تمثل » ليست « توحد » — بل إن العكس أقرب إلى الصحة وهو أن شعباً ما يستطيع تمثيل حضارةٍ ما . وشاهدنا على ذلك ، موقف مختلف الأمم الأوروبية من الحضارة الأغريقية - اللاتينية ، ولنا شاهد آخر في اليابان إزاء الغرب . وسيرد هذا الاعتراض : « لا يمثل إلا المثل أو الشبيه » . ولكن ألا يُلحظ ما في الاعتراض من تناقض؟ إذا كان التمثيل يعني « التحويل إلى المثل » ، فلا يكون للمثل إذن أن يمثّل .

الأكيد أننا نحن الزنوج الأفارقة ضدّ هذا التمثيل الكاذب الذي لا يختلف عن « الصهر في الذات » . ولكننا لسنا أقل عذراً تجاه التيار الذي يقاوم التمثيل، فإن أفضل الناس في هذا التيار ينساقون مع أرذلهم ، إذ نجد إلى جانب ليوتي مثلاً ، ذلك « المستوطن » الذي يفهم من الاستعمار « أن يتصبّب العرقُ من البرْنس » ، ونجد إلى جانب ده لافينييت ذلك « الأشيعر » الذي يحسب أن « عرق الزنجي يخصب حقول قصب السكر ». إنها « سنة الشر » كما عبر موفقاً في تعبيره السيد سيدوبر إلى جانب « سنة الخير » وكان من بدائعها « الميثاق الاستعماري » و « المدوّنة القانونية السوداء » وإعادة الرق والنخاسة عام ١٨٠٢ التي جرت على فرنسا خسران هايتي ، أجمل مستعمراتها في ذلك الزمن . والمبدأ هنا وهناك هو نفسه : الاستعمار ، وهو اقتصاد موجّه يهدف إلى غايةٍ واحدة هي إغناء المستعمر . ومن ثمة يصبح مفهوماً أن التمثيل الذي يتضمن ضرباً من الإعتراف الثقافي والسياسي ، يبدو العدوّ الأكبر للاستعمار حتى تحت ستاره المسيحي . لقد كتب شولشر عام ١٨٤٢ يقول : « هناك بعض

المزارعين يزعمون أنه كلما تنوّر العبد ، جنح إلى محاكمة الأمور ، وأصبح عديم الطاعة ، ضئيل الانتظام » . وكتب السيد بيسيير عام ١٩٢٩ ، وهو أقرب الينا في الزمن : « قال لي كاهن جزائري : كيف تريد من المستوطنين الفرنسيين أن يرضوا بتحوّل السكان الأصليين إلى الكثلكة ؟ إنهم لن يستطيعوا بعدئذ أن يركلوهم بالأقدام » . والذي نقل هذا الكلام هو سيدوبر نفسه . أنا أعترفُ أن هذه حالات متطرفة ، وعلى وجه أدق ، « استعمارية » . غير أن أبوة رأسماليتنا ، وخوف النخبة البورجوازية الفرنسية من فكرة نخبةٍ من السكان الأصليين ، ومن حرية التعبير السياسي إذ يتمتع بها سبعون مليوناً من الرعايا أو المحميين الفرنسيين ، إنما ترد من التيار نفسه . وهذا ما يفسر حذرنا وشعورنا بالحاجة إلى تبديد الالتباس الرائن على نزعة مقاومة الدمج ، وفصل الحنطة عن الزؤان ، من غير انسياح مع الدهشة أو الغضب ، فإن من طبيعة البشر أن لا يتخلّى ذوو الامتيازات عن امتيازاتهم بطيبة خاطر ، حتّى وإن كانوا من أصل كريم ونبلٍ عريق .

وإذا نحن فكرنا على الصعيد العام ، أفضت بنا محاكمة الأمور إلى هذه النتيجة ألا وهي وجوب تجاوز التضادّ الكاذب « مشاركة أو تمثيل » والقول بتمثيل ومشاركة معاً . وكان ليوتي قد كتب : « التعاون يقتضي أن يكون هناك اثنان » وهو يعني بذلك أنه يجب إعادة السلطة لسلطان مراكش . إثنان لا تجريدان ، ولا حضوران مادّيان محضان ، بل شخصان بالمعنى الأخلاقي والتشريعي للكلمة ، إذ لا يمكن لسيد وعبد ، حتّى ولا لعامل ورب عمل ، في نظام رأسمالي خالص ، أن يكونا شريكين . ثم إن الشركاء يمكن أن يكونوا من جهةٍ ثانية ، ذوي مفاهيم وأمزجة مختلفة ، ولا أقول متعارضة . بل إن من الخيرً أن يكونوا كذلك ، فالحياة تسوقهم إلى ضرب من التفاهم ، ما داموا يعملون في وحدة مشتّركة من المصالح ووجهات النظر ، ثم إلى تبادل تمثيل أفكارهم والتكيف من قبل كل منهم ، مع طبيعة شركائه وعاداته . وذلك لأن « بيتاً منقسماً على نفسه لا يمكن إلا أن يهلك » كما يعبر الانجيل .

وليس وارداً أصلاً أن تتبنى فرنسا عادات السكان الأصليين وأنظمتهم ، وإنما عليها ، أن تتفهم روحها ، وربما أمكنها أن تفيد منها كلما اتجهت نحو إحياء السنّة الفرنسية القديمة . فالأمر كله بالنسبة للجالية الاستعمارية أن تتمثل روح المدنية الفرنسية ، تمثلاً ناشطاً ودقيقاً يخصبُ المدنيـات المحلية ويُخرجها من ركودها ، أو يُنهضها من انحطاطها . المراد هذا النوع من التمثيل الذي يتيح المشاركة . وذلك هو الشرط الوحيد ليكون هنالك « مثل أعلى مشترك » و « مبرّر للعيش المشترك » ، وبهذا الشرط الوحيد يكون ثمة امبراطورية فرنسية .



الجمعة السّوداء

علينا الآن ، انطلاقاً من هذه المقدّمات ، أن ندرس — ونرسم الخطوط الكبرى — التنظيم السياسي والاجتماعيّ للزنوج الأفارقة . وذلك يتيح لنا التقاط معناه ، وتبين ما ينطوي عليه من عناصر اندثار ، كي لا نحتفظ منه بغير الأشكال الحية التي يجب على العبقرية الفرنسية أن تخصبها ، ومن الطبيعي أن نضرب صفحاً عن الخصائص التي تتميز بها مختلف الشعوب .

أظن أن بيير ميل هو الذي أبدى إعجابه الشديد بتلك « المائدة الممسوحة » للروح السوداء ، وأنّ في الإمكان البناء عليها بحرية . وهنا ، لا بد لنا من إبداء الأسف على هذا النقص في الثقافة الأثنلوجية والتاريخية لدى العديد من الكتاب « الاستعماريين » . وهؤلاء ، مع الأسف أيضاً ، هم الذين يكوّنون الرأي العام ليس لدى رجل الشارع وحسب ، وإنما لدى معظم المثقفين كذلك . ثم لا بد من التأكيد على وجود « حضارة زنجية ـ أفريقية » وبيان سِمَةِ الأصالة فيها ، وهي سمة بارزة لدرجة أن هذه الحضارة لم تنل، طول آلاف من

السنين ، سوى القليل الضئيل من الخارج ومآتيه ، وظلّت مع ذلك تغلي غلياناً متصلاً في إناء مغلق ، تحميها شطآن وسواحل بغيضة .

وذلك يردنا إلى القول إن الأصالة والقِدَم يسيران هنا معاً . وقد ذهب أحد الكتاب المحدثين إلى اعتبار « الفوضى الزنجية » أساساً في بنية هذا المجتمع ، ولم يشأ أن يرى في دولنا الكبرى خلال القرون الوسطى والأعصر الحديثة سوى إنشاءات إسلامية . وإني لأحبّ الإعتراف بمآتي الإسلام الثقافية ، بل إني كثيراً ما أقول ان الحضارة العربية ـ البربرية كانت بالنسبة للبلدان السودانية ، ما كانت الأغريقية ـ الرومانية بالنسبة لأوربا . ولكني أعود فأبين للمرة الثانية أنّ الإخصاب غير الإبداع ، وأردّ رأي ذلك الكاتب برأي عالمين من علماء الأجناس البشرية بذلا عناية خاصة في درس الأفارقة ، فقد كتب موريس ده لافوس ، متحدّثاً عن التنظيم السياسي لأمبراطورية غانا في كتابه « الزنوج » يقول : « هذا شيء مهم ، لأننا نجد فيه الدليل على أن عصور ما قبل دخول الإسلام — كان في القرن العاشر مسلمون في غانا ، ولكنهم كانوا جميعاً غرباء، فالملك ورعاياه كانوا سوداً وثنيين — ومن طريق أولى ، عصور ما قبل كل تدخل أوربي ، كان الزنوج قد توصلوا إلى درجةٍ من الثقافة كافية لتكوين دولٍ مستقرة ، شبيهة كل الشبه ، من عدة وجوه ، بالدول الشرقية والأوربية في الحقب نفسها . » . وتبع ده لافوس باحث آخر هو فروبينوس الذي كتب : « ... وإنا لنعلم أيضاً أن التنظيم الخاصّ لدول السودان كان قائماً قبل الإسلام، وأن الفنون التي تنبيء عن فكر مثل حراثة الحقول وقواعد التهذيب (الأدب) ، وأن الأنظمة البورجوازية وأجهزة العمل الاجتماعي المشترك في أفريقيا السوداء، أقدم بآلاف السنين »

كان من أفريقيا السوداء أن عرفت قبل الاستعمار ، أشكال الحكم السياسي على أنواعها ، من « الأمبراطورية » التي كانت تشتمل ، نظرياً ، على السودان الغربي برمته في مساحةٍ تمتد ٢٠٠٠ كيلو متر حتى الغابات الاستوائية ، إلى

المملكة ، إلى القبيلة . ويبدو لي أن المملكة النموذجية ، إنما هي تلك التي تكون في سعة مقاطعة فرنسية ، كما هو الشأن في الممالك الثلاث السيريريّة : باول ، وسين ، وسالوم في السنغال .

ولقد أنكر بعضهم أن يكون في أفريقيا القديمة السوداء « شعوب » و « أمم » وأخشى أن يراد من هذه الكلمات معانيها الحديثة ، المتطوّرة . ولكن لنخلطها بكلمة « وطن » التي ينشأ معناها عن وعي للأمة ، وقد أصبحت « موضوع ضرب من العبادة » العلمانية . أو لنخلطها على الأخص بـ «الدولة الحديثة» التي يقدمها لوسيان فيفر في « الموسوعة الفرنسية » على أنها « متمركزة ذات أساس من التشريع الواحد للجميع ، وإدارة للجميع غير متميّزة ، ونظام ضرائب يتساوى فيه الجميع » . ولكن إذا كانت الأمة واقعاً اجتماعياً ، كما يريدها البروفسور له فور ، وإذا كانت تتألف من العناصر الآتية — وقد ينقصها واحد منها — : العرق ، واللغة ، والدين ، والأخلاق والتقاليد المشتركة ، و« إرادة الحياة المشتركة » ، أمكن القول أنه كانت هناك أمم في أفريقيا السوداء . وعليّ أن أبيّن بدقة أن « إرادة الحياة المشتركة » كانت أقوى على مستوى القرية والمقاطعة من الدولة . وكيف دار الأمر ، فإن مما لا نزاع فيه أن الشعور بوحدة اللغة والثقافة ، وبالتالي ، التعلّق بهذه الثقافة وتلك اللغة . وهذا الشعور يذهب أحياناً إلى أبعد من ذلك ، ويطغى على الأمة ذاتها . وهكذا ، نجد أن متكلمي «الولوف» لا يطلقون ، على العموم ، كلمة التحقير « لاكاكات» (ومعناها الحرفي الذي يتكلم لغة أجنبيّة) على سائر الشعوب السنغالية - التوكولور ، والسيرير ، والديولا — الذين يعتبرونهم إخوانهم في العرق واللغة .

ولن يكون أفضل من رسم الخطوط الكبرى بإيجاز ، للتنظيم الاجتماعي والسياسي في مملكة السيرير القديمة في السين التي أنتمي إليها ، أكي عطيَ فكرة حيّة عن ذلك المجتمع وأصوله .

كان النظام السياسي والاجتماعي في السين يقوم على سلّم الطبقات . وكان هناك :

١ — على رأس الدولة الملك أو « البور »

٢ — الغويلوار أو النبلاء الذين يمثّلون ، نظرياً ، الفاتحين الأقدمين « مالنكيس » .

٣ — الأحرار ، وينقسمون بين « ديامبور » و « بادولا » ، وهم الأكثرية أو جمهرة الفلاحين السيرير .

٤ — « النييني » أو أصحاب الحِرَف الذين يتجمّعون في طبقات فرعيّة من حدادين ، وأطبّاء ، وإسكافيين ، وحاكة ، وحطّابين أو عمال خشب .

٥ — « الفاد » أو الأسرى . وأقول « أسرى » لأنها أفضل من وصف « عبيد ». وكان يساعد الملك وزراء ، وحكام عسكريون ، و « ضباط » مدنيون . وتجدر الإشارة في الأوّلين — الوزراء — إلى ثلاثة كبار : الدياراف بوري أو الدياراف الكبير ، وهو يمثل الأحرار في السلطة ، وبهذا المعنى يؤدّي وظائف رئيس الوزراء ووزير العدل . ويليه فارباري أو فاربا الكبير ، رئيس وممثل الأسرى ، وهو وزير الحربية . وأخيراً فاربا بيركور . أو فاربا البلاط ، وهو يشبه رئيس التشريفات أو مدير البروتوكول ، ويشغل وظائف شبيهة بوظائف وزير الداخلية ووزير المال . ونجد إلى جانب الوزراء « بورات » صغار ، يحكمون أقاليم المملكة ويقودون عساكرها . ونجد في آخر درجات السلم : « الساخ ـ ساخ ، والغويلوار و « الديامبور » الذين يديرون القرى المتجمعة في مقاطعات ، و « الدياليغه » أسرى التاج الذين يديرون قرى الأجانب أو الغرباء من قبائل « البول » .

الملك يُنتخب . والانتخاب يقوم به ممثلو جميع الطبقات ، والمبدأ أن يختاره الدياراف الأكبر ، من بين أُسرِ الغويلوار .. والملك هو الرئيس السياسي والمدني والديني للدولة . والحكام وهم ينالون الحكم بالوراثة ، والوزراء ، والضباط الذين يعينهم الملك ، يخدمون تحت إمرته المباشرة . ومع ذلك ، لا

يستطيع أن يتخذ أي قرار مهم دون موافقة مجلس العرش المؤلف من« الغويلوار » ذوي السلطة الوراثية .

ذلك بأن الملك كان شخصاً صوفياً، يمثل وحدة المملكة والرابطة الدينية التي توحّد طائفة الاحياء بالجدود الاقدمين والألوهة . ومنذ نحوٍ من خمسين سنة كانت أكثرية الأسَرِ المالكة في افريقيا السوداء من سلالات الفاتحين . وتلك كانت هي حال السين . وهذا ما يفسر تفرّد النعوت الدينية التي يختص بها « البور » فشخصه مقدس ، وهو رئيس الدين الرسمي ، ولكنه ليس الكاهن ، لأن مقام الكهنوت ليس من شأن الفتح ، فهو لا يؤدّي القرابين بنفسه ، وإنما له ، أن يشرف من علٍ على ادارة أكليروس المعابد « الوطنيين » فحسب .

الدياراف الأكبر يختاره الملك بتقديم من البورات ، ويمكن أن يكون هو نفسه بوراً ، وأغلب الأحيان يؤخذ من « الساخ ـ ساخ » ، أومن« الديامبور » وهو إذ يأخذ مقامه مباشرة بعد الملك ، كمستشار أول بوصفه رئيساً للوزراء، إنما يكون القاضي الأعلى الذي يستطيع وحده أن يحكم بالموت .

أما الفاربا الكبير فانه ينتخب من بين « الدياليغه » ، ويرئس جيش التاج المؤلف من الاسرى . وأهم شيءٍ في شأنه أن ينمى في أصله الى العبيـــد ، وأن يكون معظم عساكره من الأسرى الذين يمثلهم . وبهذا يكون ولاء الجيش كلّه لشخص الملك ، وبه يتفادى — أي الجيش — دسائس النبلاء التي تكثر عادة وتصطخب . والفاربا — بير — كور يكون كذلك من فئة الدياليغة وهو الذي يجبي الضرائب ، ويقدمها للبورات ، والساخ ـ ساخ ، وقادة الدياليغة، أي يدبر ، بقول مجمل ، شؤون المملكة المالية .

والبورات الصغار هم العبارة الأكثر نموذجية لطبقة النبلاء من« الغويلوار ». وفيهم من كان ديامبور ، لأن ثمة مداخلات دائمة بين الطبقتين ، والزيجات المختلطة لم تكن قط ممنوعة فيهما . ولقد كان الغويلوار ، والبورات عـــلى

الأخص ، في تمثيلهم تقاليد الشرف والشهامة ، أجمل تعبير ، إن لم يكونوا أصدقه ، عن أفريقيا السودانية . وكان على رأس الأقاليم ، وعساكر القرى خاصّة ، أولئك الذين يقومون بالوظائف المدنية والعسكرية .

قلنا ان الساخ — ساخ يُختارون من بين الديامبور ، من أُسر الوجهاء الأكثر عراقة بفضل قدمها ، وثرواتها ، وعلاقاتها ، أو بفضل خبرتها وحنكتها قولاً واحداً . هؤلاء أشبه ما يكونون بـ « محافظين » تمتد دوائرهم الإدارية على المملكة برمتها ، بما فيها حاميات القرى العسكرية . ودورهم الجوهري ، أن ينقلوا قرارات الملك الى الأهالي ، ويسهروا على تنفيذها ، وأن يجمعوا أعشار الغلال والماشية التي تؤلف الضريبة النظامية المعتادة .

والدياليغة ، وهم من العبيد أصلاً ، يقومون بالوظائف نفسها تجاه الأقلية البيلية ، هذه الأقليّة ذات الحقوق المحدودة ، ولكنها معترف بها ومحترمة .

وهكذا ، نجد أن ما يميّز هذا التنظيم السياسيّ إنما هو « التوازن » ، فإن جميع الطبقات ابتداء من الغيلوار حتّى الاسرى ، يشاركون في حياة الدولة ، ويدعمون بنيانها ، ومقاليدها ، ويساندون الملك في مهمته ، بينما يؤمّن هذا وحدتهم فوق خلافاتهم ، أي فوق منازعاتهم وتضادهم فيما بينهم .

والبادولا : الفقراء وطبقة الاحرار ، وكذلك « النييني » أصحاب الحرف قد يظهرون لنا في هذا النظام ، على أنهم ضحايا ، أو فئات ضُحّيَ بها ، فلنلاحظ أن الفرق القائم بين الديامبور والبادولا ، إنما هو فرق طبقي ، أي في الثروة لا في المقام الاجتماعي ...

غير أن التنظيم الاجتماعيّ لدى الزنوج الأفارقة يظهر أفضل ما يظهر ، إجمالاً ، على صعيد القرية ، ولدى السيرير خاصّة . فالقرية أكثر من تجمّع سياسيّ ، وإنما هي جماعة أو طائفة تقوم على الدين والوقائع الاقتصادية .

ويقوم على رأس القرية زعيمها أو « الدياراف » . ولا ريب أنّ لـه

وظيفة سياسية ، وهي أن ينقل أوامر السلطة المركزية ويسهر على تنفيذهـا . وهو إلى ذلك ، على الأخص ، « حاكم صلح » بين أهالي القرية ، ومدبّر شؤونهم الاقتصاديّة العامّة . وتفسير هاتين الوظيفتين الأخيرتين يكمن في صفته الدينية . ذلك هو الكاهن . وكان قبل الاستعمار الفرنسي متحدراً من « مؤسس القرية » في النسب – هذا المؤسس الذي تأخذ القرية اسمه،أغلب الأحيان – أي من ذاك الذي ربط بالتعاقد ، جنّي الأرض وسائر أرواح المكان؛ وبهذه الصفة ، وكل اليه أمر عبادة هذه الارواح ، وعبادة المؤسس الذي ارتفع الى مصاف الجنّ المحسنين . وهكذا تبدو القرية ، لأول وهلة ، وكأنها طائفةٌ من المؤمنين تجمّعت حول عبادة واحدة ، وكأنها أبرشية .

وتظهر أيضاً وكأنها « طائفة خيرات » . علينا أن نقف هنيهة عند هـذه الفكرة ونتعمّق في درسها ، أن نرسم نظام المُلكية ، بتعبيرٍ آخر .

الكلمة – المُلكية – غير صالحة لأداء المعنى ، كما لاحظ علماء الأثنلوجيا من قبل ، بل إنها مبهمة هنا ، ولا تخلو من التباس . والواقع أنّه لا يمكـن إطلاق هذه الكلمة ، بالدقة ، إلا على محصولات العمل : الأشياء المصنوعة للاستعمال الفرديّ . وما بقي فهو ملك للجماعة . ولا يمكن حتّى القول ان هنالك « ملكية أرض » ، لأن الأرض والأنهار والبحيرات وسائر عوارض الأرض ، ملك للأرواح ، أو بالأحرى ، تمتزج هذه بتلك . الأرض – الأم جنيّة ، فلا يمكن أن يكون لأحد حق في أرض سوى حق التصرف أوالاستثمار وهذا الحق هو الذي اكتسبه « المؤسس » على رقعة جدّ محدّدة ، تؤلـف البقعة المشتركة (الناحية) . ومن هنا جاء اسم « لامان » الذي يطلق على« سيد الأرض » ، ويحمله رئيس القرية ويأتيه عن طريق الوراثة .

والملك يحمل لقباً مماثلاً ، ويتميّز بوصفه « سيد الأرض السامي » .وتلك هي حال معظم الملوك الزنوج – الأفارقة . ولا بدّ من تفسير ذلك :

الملك لا يحمل هذا اللقب إلا تحت ستار من قصة اسطورية قضائية –

دينية . والرواة يفترضون أن الأسرة المالكة السيريرية القديمة تخلّت عن حقوقها للفاتحين الجدد آل مالنكه وهي سلالة سريريرية كان ملكها الاول فوق اللامان ، وقد امتلك البلاد باسم شعبها . والواقع أن لقبه يليق بالديارافب الكبير أكثر منه ، لأن هذا يمثل اللامان عند الملك ، فهو الذي وكل اليه الدفاع عن أملاك الجماعات القروية ضد جور الرّؤساء ، وحتّى ضد البور . أيكون معنى ذلك أن الحقوق العقارية للملك وهمية ؟ لا ! فهي تمتدّ على جميع الأراضي التي لا تخص الجماعات .

ولنعد الى القرية ورئيسها اللامان ، وقد بيّنّا أنه مدبّر أملاك الجماعة القروية . وهذه الاملاك تتكوّن من حقول ، ومراع ، وغابات ، ومجاري ماء ، وينابيع ، وآبار ، إلخ ... وسمتها الاولى أنها مما لا يمكن بيعه أورهنه. لا يستطيع اللامان أن يبيع شيئاً منها ، ولا يمكنه حتى أن يؤجّر شيئاً بدون موافقة مجلس الوجهاء ، وهو ضرب من مجلس بلديّ يتألف من رؤساء « المربّعات » أي « الأسَر »الممتدّة . والملكية القروية مما لا يقسّم ، فهي تخصّ ، بجملتها ، كلّ أفراد الجماعة ، وما من جزءٍ بالغاً ما بلغ من الضآلة،يمكن أن يُتخلّى عنه على نحو نهائيّ . وكان اللامان قديماً يقوم بعملية إعادة توزيعٍ للأراضي بين مختلف الاسر . وكان هذا العمل جوهر وظيفته كمدبر . وكان عليه أيضاً ، بصورةٍ عامّة ، أن يسهر على صيانة الملكية الجماعية وحسن استثمارها ، أن يرشد ويوجّه الأشغال ذات المنفعة العامّة التي تفرضها الضرورة .

تحدثنا عن الأسَر التي كانت تتوزّع الاراضي فيما بينها . وقد آن الأوان لدرس الخطوط الكبرى للأسرة السيريرية التي تؤلّف ، شأنها هنا كشأنها في أفريقيا السوداء وسائر أنحاء العالم ، « الخلية الاجتماعية » .

هناك أولاً « الأسرة المحدودة » ، أو الأسرة بالمعنى الأوروبي للكلمة التي تشتمل على الأب والأم والأولاد . تلك هي الأسرة الأبوية التي لا قيمة لها سوى شرعية .

الاسرة السيريرية الحقيقية هي التي تكون السلطة فيها للأم ، الاسرة الممتدّة أو المتوسّعة ، وتشتمل على جميع أفراد ذرية الأم ، المتحدرين من امرأةٍ واحدةٍ ، هي الجدّة الكبرى المشتركة . وذلك لانّ روابط الدم تنعقد على يدِ الأم ، وبها وحدها . والمثل السيريريّ يقول : « البطن هي التي تشرّف »

إن جميع أعضاء الأسرة المتوسعة يعيشون ، مبدئيّاً في « المربّع » ذاته ، المؤلّف من عدة أُسَر . والأسرة هذه المؤسسة على قاعدةٍ دينية واقتصاديّة، شبيهة في ذلك بالقرية وأكثر من القرية ، تشعر شعوراً عميقاً بوحدتها.ويقوم على رأس الأسرة ، ربّها ، ويكون مبدئيّاً ، أكبر أجيالها القديمة سنّاً ، يساعده مجلس الأسرة المؤلّف من جميع أعضائها الراشدين من الجنسين وفي استطاعة هؤلاء أن يخلعوه بسبب من شيخوخته أو جنونه ، أو لارتكابه خطأ فاحشاً .

وربّ الأسرة هو ، أولاً ، الكاهن المكلف بعبادة الأجداد . وهو وحده الذي يستطيع مخاطبتهم ، ولا يستطيع ذلك إلا في شأن تكون به مصلحة الأسرة كلّها . وبهذه الصفة يتولى الإشراف والتوجيه الأخلاقيّ لجميع أعضاء الأسرة ، وللأحداث والشبّان ، خاصّةً .

ورب الأسرة هو ، في المنزلة الثانية ، مدبّر أموال الأسرة . وهذه تتّسم بالسمات نفسها لأموال القرية وأملاكها،من أنها لا تقسّم ولا تباع ولا ترهن ويمكن أن تشبّه صلاحيات رب الاسرة بصلاحيات رئيس القرية . إنها جدّ واسعة ، ولكن يمكن أن تندرج في ثلاث : التوزيع ، والصيانة ، والإدارة. ورب الاسرة يتلقى من أهراء العيلة ، شطراً من محصول عمل كل فرد ، والباقي يترك لحاجات المنزل أو الفرد ، وتؤخذ من مدّخرات الأسرة المهور التي تدفع للفتيات عند الزواج . كما تؤخذ منها جميع المساعدات للأعضاء في حالات الظروف الكبرى : الولادة ، الزواج ، الموت .

ويمكن تمييز مجموعة من الفئات بين الأسرة والقرية ، وهاتان هما قطبا

النشاط الاجتماعي ، وتفاعل تلك الفئات هو الذي ينعش هذا النشاط ويجعله متوازناً . والباحثون في شؤون أفريقيا أشاروا إليه ووصفوه ،في أكثر دراساتهم. وتلك الفئات هي جمعيات النساء والرجال ، وطبقات السن ، وطبقات العارفين ، والأخويات ذات الشعائر السرية ، والطبقات أو أصحاب المقامات العالية في المجتمع .

لن أخوض هنا إلا في حديث الفئات التي تمثل المجتمعات الزنجية أكثر من غيرها ، وفيها من الحياة ما ليس في الباقية ، وخاصة في بلاد السين «السنغال».

القرية منقسمة بين مجتمع رجال ومجتمع نساء ، وعمل هذين المجتمعين لا يتمثل إلا في المناسبات الكبرى . وينبغي أن لا نحسب أن دور المرأة كان ضئيلاً ، وكما أن عمل النساء يختلف كل الاختلاف عن عمل الرجال ، فإن دور مجتمعهن يختلف أيضاً . وإذا كان من الصحيح أن المرأة تتخصص في الدفاع عن المصالح النسوية ، فإن لها أيضاً كلمتها في المشكلات الكبرى التي تهم القرية .

ولقد حلت طبقات العارفين محل طبقة السن في مملكة السين ، ولدى السيرير على العموم ، سيراً مع التطور الطبيعي للمجتمعات الزنجية – الافريقية . وهذه الطبقات تتكون في الاحتفال بالختان الذي يجري في أوقات المراهقة . والختان ليس ، في الحقيقة ، سوى مناسبة لتربية حقيقية . والمراد منه إعداد الشباب لأداء وظيفة الرجولة ؛ بل إن المراد تدريب حقيقي على الدين تواكبه أدلة ، وشعائر ، واحتفالات ، وتمرين على الزهد ؛ فهي معرفة تقوم على أساس من سر الموت – البعث .

هذه الدربة التي يديرها نوع من الاكليروس المختص ، تجري في الغابات المقدسة . وهي تشتمل عملياً على تعليم أهم موادها : الدين – مع ارتباطاته بالأخلاق – والتاريخ ، والسياسة والعُرف المتبع ، أي في الصحة والجمالية اللتين تنشدهما الجماعة ، والمراد إذن صون التقاليد والإبقاء عليها ، وبالتالي

صون الجماعة . وهؤلاء الرجال يتصرفون وكأنهم حزب من الأحزاب ، إذ يحاولون ، عند خروجهم ، إسماع صوت جيلهم ، داخل طبقاتهم المتنوّعة.

أما حياة ذوي المقامات الموزّعين في طبقات أيضاً ، وعلاقاتهم بالقرية ، فلن نعيد حديث الغويلوار الذي فرغنا منه . ونشير إلى أنهم يشغلون ، على رأس المقاطعات والأقاليم والحاميات العسكرية ، مناصب القيادة أو يعيشون في بلاط الملك ، والبورات الآخرين .

بيد أن المقام الأول يعود ، في القُرى ، للرجال الأحرار ، للديامبور أو البادولا ، كلٌ حسب ثروته ، أي للفلاّحين . ولنبيّن هنا أن الاشتغال بالأرض ، في أفريقيا السوداء ، أنبلُ الأعمال ، وأن الحضارات الأفريقية فلاحيّةٌ قبل كل شيء . والرجال الأحرار هم الذين يؤلفون طبقات العارفين أو المدرّبين الذين تحدثنا عنهم ، ومنهم تستمدّ القرية رئيسها وأعضاء مجلس وجهائها .

« النييني » أو أصحاب الحِرَف يحيون حياةً خاصةً منفصلة ، ويتزوجون من بعضهم البعض ، داخل طبقاتهم الفرعية . وهذه الطبقات تتألّف ، في خطّ نازل ، من : الصاغة ، والحدادين ، والحاكة ، والاسكافيين ، والحطّابين ، والقوّالين المتجوّلين (قصاصين ، مغنّين ، عرافين ، سَحَرَة، إلخ ...) . وأصحاب الحِرَف هؤلاء يعيشون — الأخيرين منهم خاصة — في جوار الملك والبورات ، ولكنهم منتشرون في القرى . وهم كغيرهم من طبقات المجتمع ، منظّمون ولهم مراتب . وكلهم يتمرنون ويتدرّبون على الأعمال التي يقومون بها ، إذ ان لكل حرفة تقنية وأسراراً ، وتواكبها طقوس سحرية ، ثم يمرون بمختلف الدرجات التي من شأنها أن تجعلهم « معلّمين » أو « أساتذة » في كل حرفة .

والأمر الذي لا شك فيه أن الحِرَفيين لا يحظون بالاحترام ، أو هم محتقرون والقوالين منهم ، على الأخصّ ، الذين يمارسون الشعر ، والغناء ، والتمثيل،

والرقص ، لأنهم يعيشون من أعطيات الكبار ، وعليهم بالضرورة أن يتملقوهم ولكن التقدير لا ينقصهم من أجل فنّهم ، وللخدمات التي يؤدّونها للقرية. وهم موضع خوف بسببٍ من الاسرار التي يملكونها ، فهم الذين يزوّدون المجتمع بالأطباء وأسباب الشفاء . وهكذا ، فإن تأثيرهم ، وإن كان خفيّاً ، حقيقة واقعية .

وهناك ، في أسفل السلّم الاجتماعي ، طبقة الأسرى . وهؤلاء مقسّمون بين أسرى التاج ، وأسرى أفرادٍ . وأسرى الأفراد بين أسرى نخاسة وأسرى منزل .

وأسرى التاج هم ذوو الامتيازات . وقد رأينا أنهم يمدون العرش بموظفين كبار : فاربا وداياليغه . ولكنّ معظمهم يشكّلون « التيدو » أي الجنود ، ولهذا ، فإن لهم الميزات التي يتمتع بها العسكريون في كل مكان .

والاسرى الذين يُشرون بالمال أو يُحصل عليهم غنيمةً في الحرب يؤلفون طبقة فرعية من أسرى النخاسة ، وهؤلاء هم أتعس الناس : يمكن ضربهم بالعصي ، والنساء منهم يقدّمن سراري ومحظيات للأحرار ، باعتبارهن نساء أسرى ، ومن غير رضاهنّ . ولكن الأسير ، حتى النخاسي لا يمكن أن يباع ويمكن استلحاقه ، حتى بغير إرادة سيده ، ولا يمكن أن يعدم جوراً .

أما أسرى المنزل وهم الأكثر عدداً ، فإنهم يتألفون من جمهرة العبيد المعتقين ، وأبناء أسرى النخاسة المولودين في المنزل ، وهؤلاء أقرب الى أن يكونوا خدماً منهم إلى عبيد بالمعنى القديم للكلمة . إنهم يؤلفون جزءاً من الأسرة التي يحملون اسمها ، ولا يشتغلون للسيد إلا جزءاً من أشغالهم ، وهذا يجب عليه لقاء ذلك أن يقدم لهم حقلاً ، وغذاء ، وكساء ، وزوجة .

وإذا أردنا تلخيص ما فصلنا ، ندرك بسهولة السمات الجوهرية للمجتمع السيريري.والبارز في شأنه وحدته وانسجامه . إنه يقوم ، في الحقيقة على قاعدة من مراتب الطبقات وتوازنها في جانب ، والأجناس والأجيال في جانب

آخر . وهذه هي السمات الدائمة لكل المجتمعات الزنجية ـ الافريقية ، وتلك هي مزاياها . ومن خلالها نشاهد أيضـــاً النقائص وثغرات الفراغ : احتقار العمل اليدوي ، مقامات بدلاً من طبقات ، استعباد عـــلى الرغم مما يلطفه من اعتدال . وأخيراً ، وعلى وجه العموم ، إخضاع مطلق بالغ في إطلاقه ، للشخص أمام الطائفة أو الجماعة .

وإن عرضنا هذا ، كما نشعر . لم نتوسع فيه كثيراً . ولكي يكون تامّاً ، كان علينا ، مع ذلك ، أن نتعمّق في بسط السمات التي تطبع الدين الزنجيّ الأفريقي بطابعها ، ونقوم بدراسة نفسية ـ عضوية للأسود ، من شأنها أن تتيح لنا تحديد المكانة الكبرى التي يحتلها الفن من حياته . وفي هذه المنطقة من دراسته ، تعود فتظهر لنا ميزاته بأجلى مظاهرها من صوفية دينية ، إلى رجحان كل ما هو غير فني ، في الأعمال الفنية ، رجحاناً طاغياً ، كما تظهر أيضاً نقائصه مثل احتقار العقل والتأملات الأخلاقية . وأنا لا أقول الأخلاق العملية.

●◆●

٣ - التغيرات . الإبار الفرنسي

كان على الاستعمار أن يغيّر ذلك التنظيم السياسي والاجتماعي لحياة الزنجي الأفريقي . بل كان هذا التغيير هو الهدف المعلن : أن يعمل لخير السكان الأصليين . فماذا كان ، في الواقع ، عمل المستعمِر ؟ أتراه مشى في الخطّ الذي رسمناه : إلغاء عناصر الموت وإخصاب عناصر الحياة ؟ تلك هي المشكلة التي نحاول الآن درسها ، مع نقدٍ — أردناه موضوعياً — في الوقت نفسه للطرائق الاستعمارية التي اتبعتها الجمهورية الثالثة (الفرنسية) .

وهنا يتابع الرئيس سنغور بحثه ، بادئاً بدرس المشكلة الدينية وكيف تناولها الاستعمار الفرنسي بمستهل قدومه الى افريقيا السوداء ، ويقرّر ان الجمهورية الفرنسية الثالثة (قامت بعد عام ١٨٧٠) تجاهلت الواقع الديني وتنكرت له في تلك المناطق . وتشددت أكثر ما تشددت في توجيهها الثقافي ، على إعطاء الأولوية للعقل والملكات الذهنية الخالصة ، حتى اذا وصل الى تاريخ الحياة الدينية في أفريقيا السوداء ، قال :

مما لا ينكر أن العنصر العربي – البربري و« الاسلام » زوّدوا الدم الاسود بخميرة جديدة وبالتالي الحضارة الزنجية الافريقية ، فهما اللذان جاءانا بحماسة عسكرية وقلق فكري وديانة وأخلاقية ذاتي أساس أكثر عقلانية ، فظهرت لنا فكرة الله إذ أصبحت أكثر دقة ودلالة . أما إمكان قيام « وفاق مصالح » بين الاسلام والانسان الزنجي ، فهذا ما أثبتته بالدليل ، حضارة القرون الوسطى السودانية التي كان يعتبرها المغاربة والبرتغاليون مساوية لحضارتهم . غير أن هناك ملاحظتين تفرضان نفسيهما : الأولى أن الاسلام ظلّ بعيداً عن أن يمثّل الزنوج ، وإنما هم الزنوج الذين تمثّلوه ، أي أن النزعة الإنسية السودانية لم تكن ، بتعبير آخر ، نتيجة فتح . والواقع أن الهيكل السياسيّ للدولة ظلّ زنجياً ، من وجهة تاريخية ، وإن احتل العرب–البربر مكاناً واسعاً في جمع الشمل ، وشمول الجمع ، وهذا ما جعل لهم القوة والاستقرار . والملاحظة الثانية أن العرب – البربر هم الذين أثاروا الحروب التي كان من شأنها انهيار تلك الإنسية السودانية . فقد هوت امبراطورية غانا تحت ضربات المرابطين ، وامبراطورية غازو تحت ضربات المراكشيين ...

ثم يعرض المؤلف الدور الذي لعبته البعثات التبشيرية . من مختلف وجهات النظر المسيحية ، ويخلص الى وجوب « تطعيم » الأصول الزنجية بالفكر المسيحي، لا اقتلاع تلك الأصول . ويلح على وجوب تركز الكثلكة في مصادرها وينابيعها الأولى . ويعود الى التطعيم (الابارة) السياسي ، فيقول :

رأينا من قبل ضرباً من التنظيم السياسيّ الخاصّ بالزنوج الافارقة . ماذا فعل الاستعماريون بذلك النظام ؟ أتراهم حوّروه فقط ؟ لا ! وإنما دمروه وهم يحملون أطيب النيات ...

نعم ! إن النظام السياسيّ الذي كان متبعاً لدى الزنوج ، ظل في معظم الحالات مفارقة كبرى ، فهو لا يلبي مبدأ المشاركة ، ولا مبدأ التمثيل ، وإنّ جميع أصحاب النظريات الاستعمارية حكموا ضده ضمناً ، على الأقل، وبعبارات مكشوفة غالباً . إن من واجبنا أن نبحث عن حل لهذه المشكلة ،

انطلاقاً من المقدمات التي وضعناها في بيان الواقع الأفريقي . وذلك يخولنا القول إن التعبير السياسي عن أفريقيا السوداء يشاء أن يكون الرؤساء الـــذين يمثلون الشعب ، رؤساء منتخبين من قِبَلِ الشعب . وهذا المبدأ ينبثق مـــن السنّة الفرنسية والسنة الزنجية – الافريقية معاً .

وها نحن نلخص للقارىء أهم المبادىء السياسية التي يعرضها الرئيس سنغور في هذا البحث :

– ليست السياسة سوى أداة في خدمة الجانب الاجتماعي ...ومن هنـــا كانت الضرورة ملحة في التغلّب على البؤس ، في خلق نظام اجتماعي جديد مؤسسٍ على قواعد القديم .

– يجب أن تهدف التربية إلى بناء الروح ، وإعداد المتعلم لأداء وظيفـــة اجتماعية .

– لا بدّ من فصل ما هو إعداد للمهنة ،عما هو تربية في كل تنظيم تعليمي.

– المدرسة الريفية أساس في بناء المواطن الريفي ؛ لا غنى عن التشديد على أنها مدرسة .

– أفضل وسائل التفاعل الحضاري أن تكون الدروس العالية والثانويـــة مقارنة دائمة بين أوربا وافريقيا .

– على تعليم الفرنسية في افريقيا أن يلتحق بتعلم الاثنلوجيا « علم أجناس البشر » كي يؤتي ثماره الصحيحة .

– يجب الفصل بين الأداة والتربة ، في التعليم الزراعي ، فالأدوات التي نستحضرها من فرنسا ، إنما نستعملها في تربة أفريقية .

فهرس

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ تلفون ٢٥٨٧٠٠ ـ ص.ب ٣١٧٦



ŒUVRES CHOISIES

